

صفحات

# من تاريخ المغرب

العربي

(غرب إفريقيا)

تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا

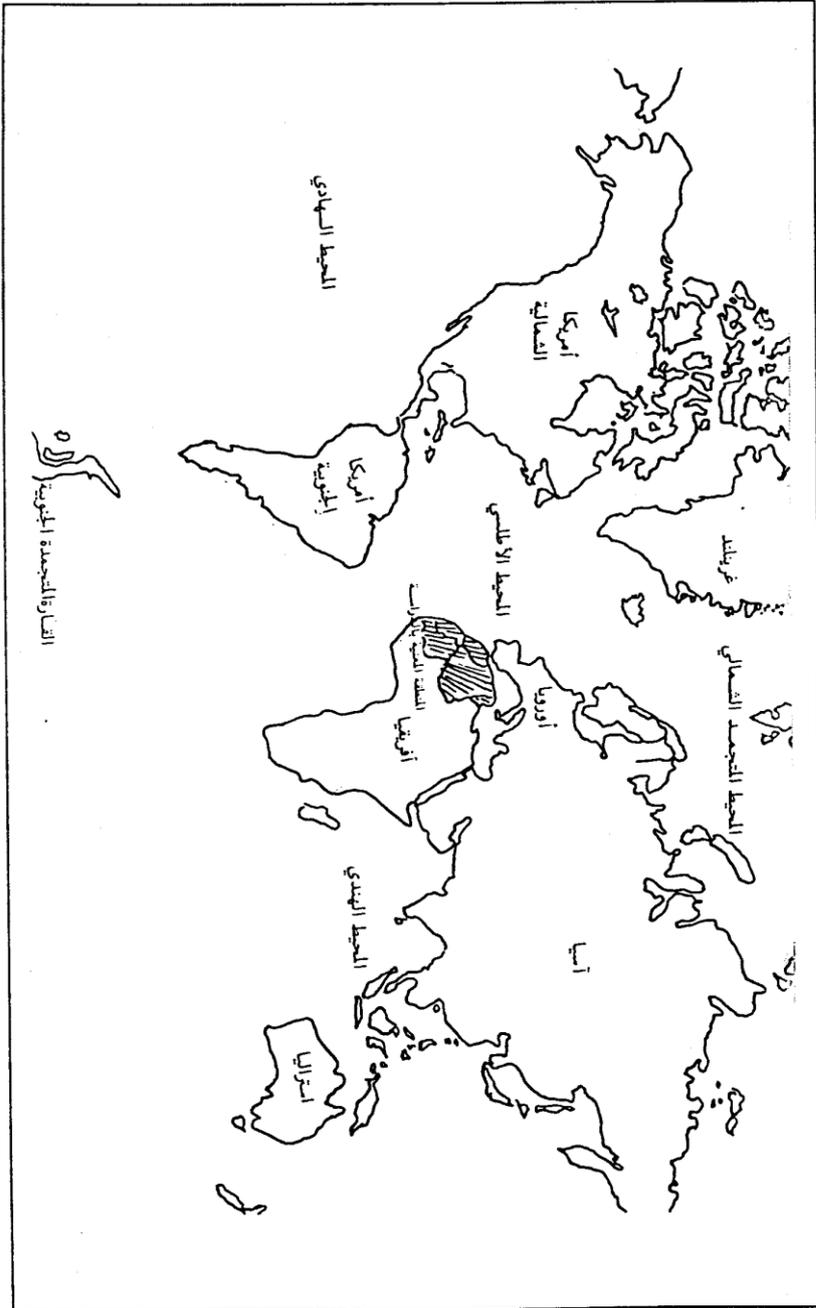
(مقتطف من رسالة الدكتوراة)

تأليف

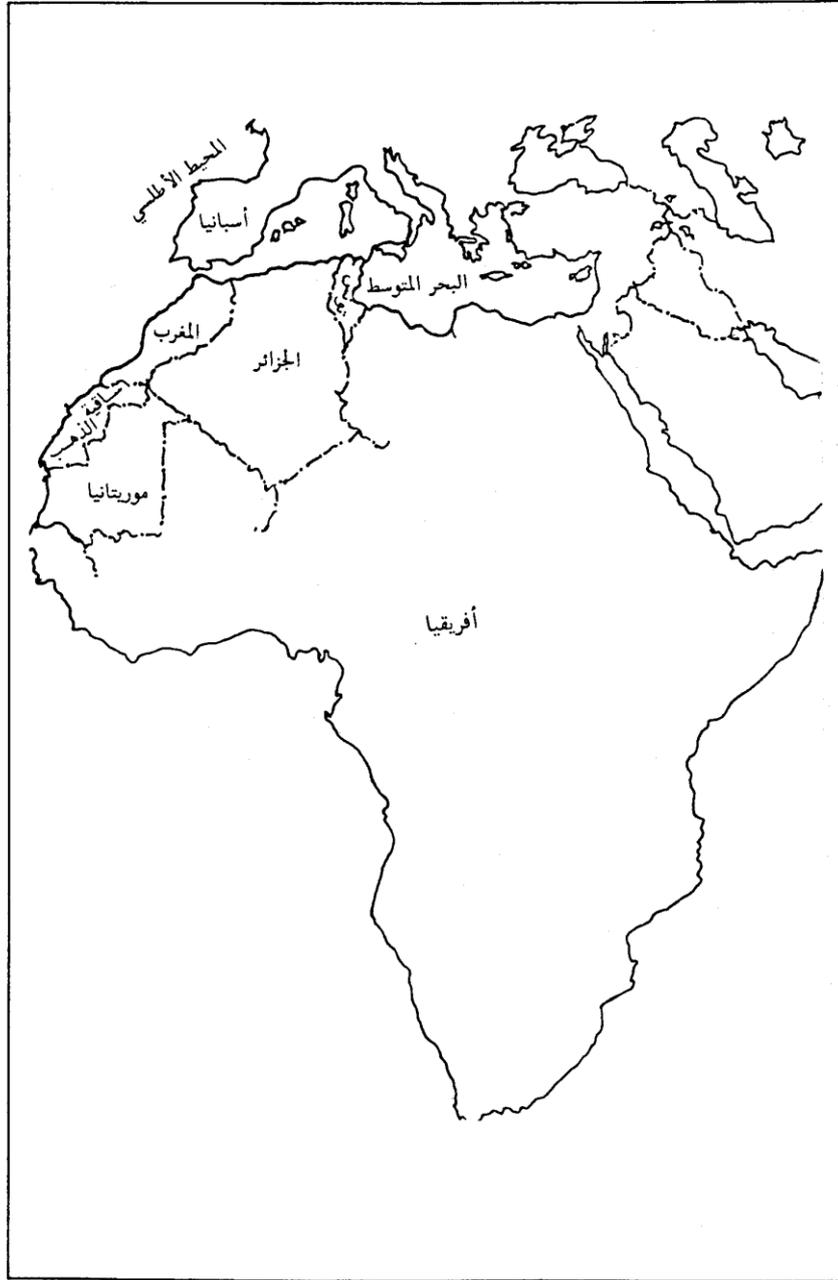
د. محمد بوزرق بوطرموني

١٤٢٠ هـ

هذا الكتاب  
مقتطف من رسالة الدكتوراه  
المقدمة من المؤلف إلى قسم التفسير من كلية أصول الدين  
بجامعة الأزهر  
لعام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م  
بإشراف  
فضيلة الأستاذ الدكتور : عبد الغفور محمود مصطفى  
تحت عنوان  
( التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا )  
والتي نال بها المؤلف  
درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى

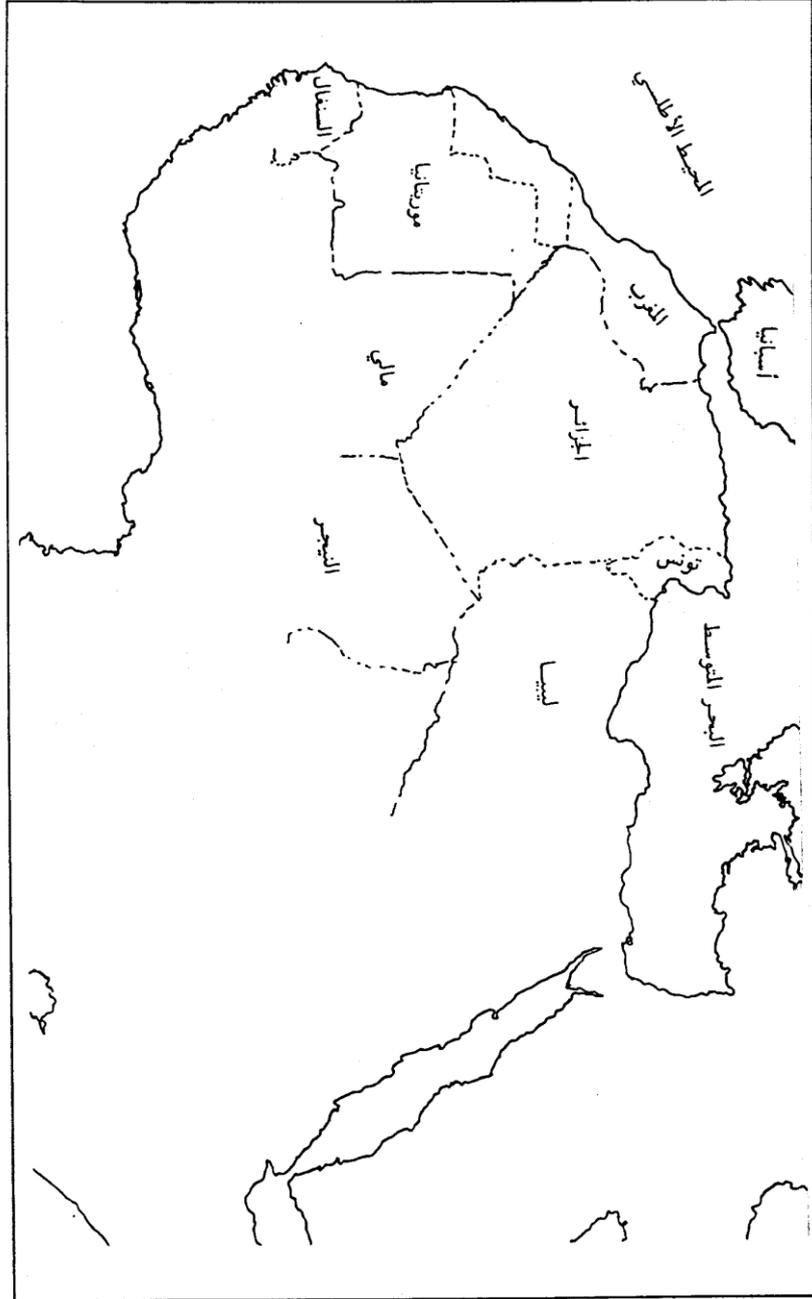


خريطة رقم (١) موقع المنطقة المعنية بالدراسة بالنسبة للعالم

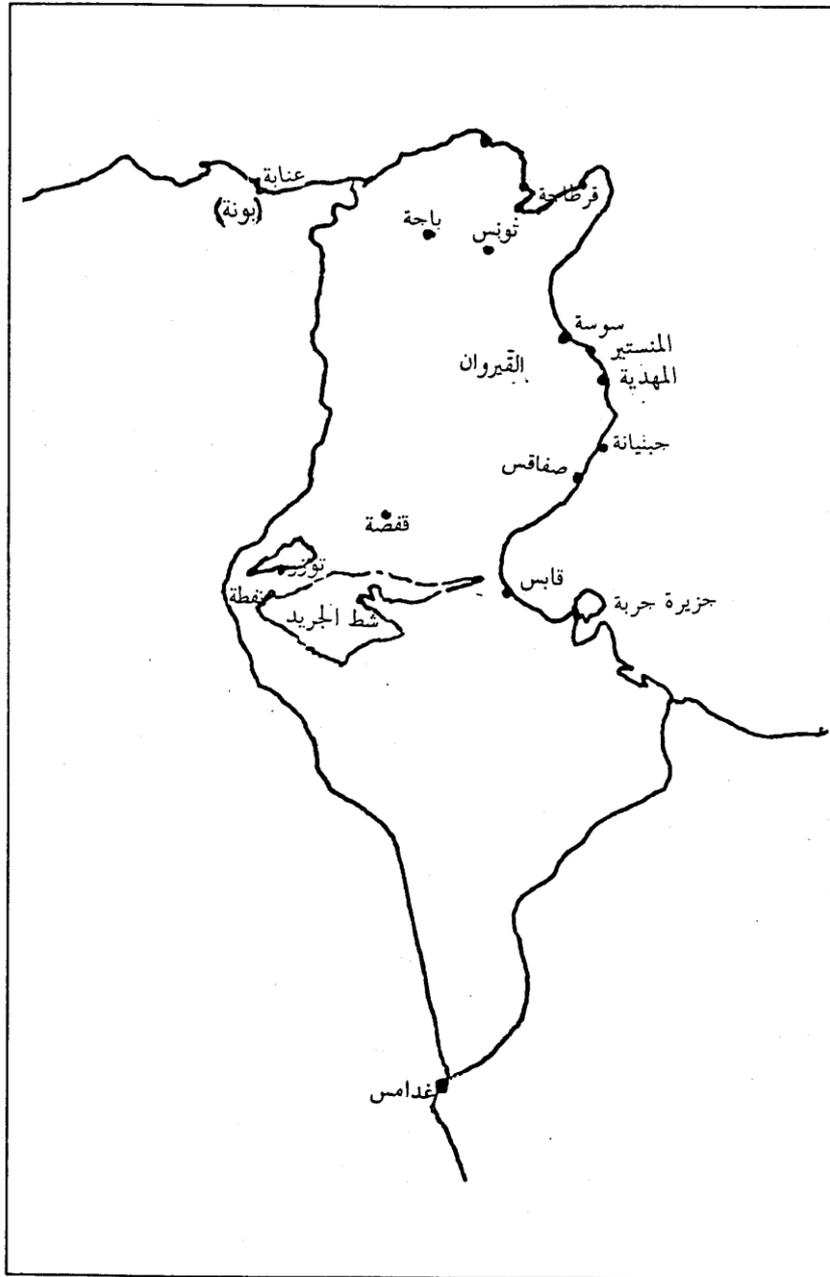


خريطة رقم (٧) موقع المنطقة بالنسبة لقارة أفريقيا

١٢٦



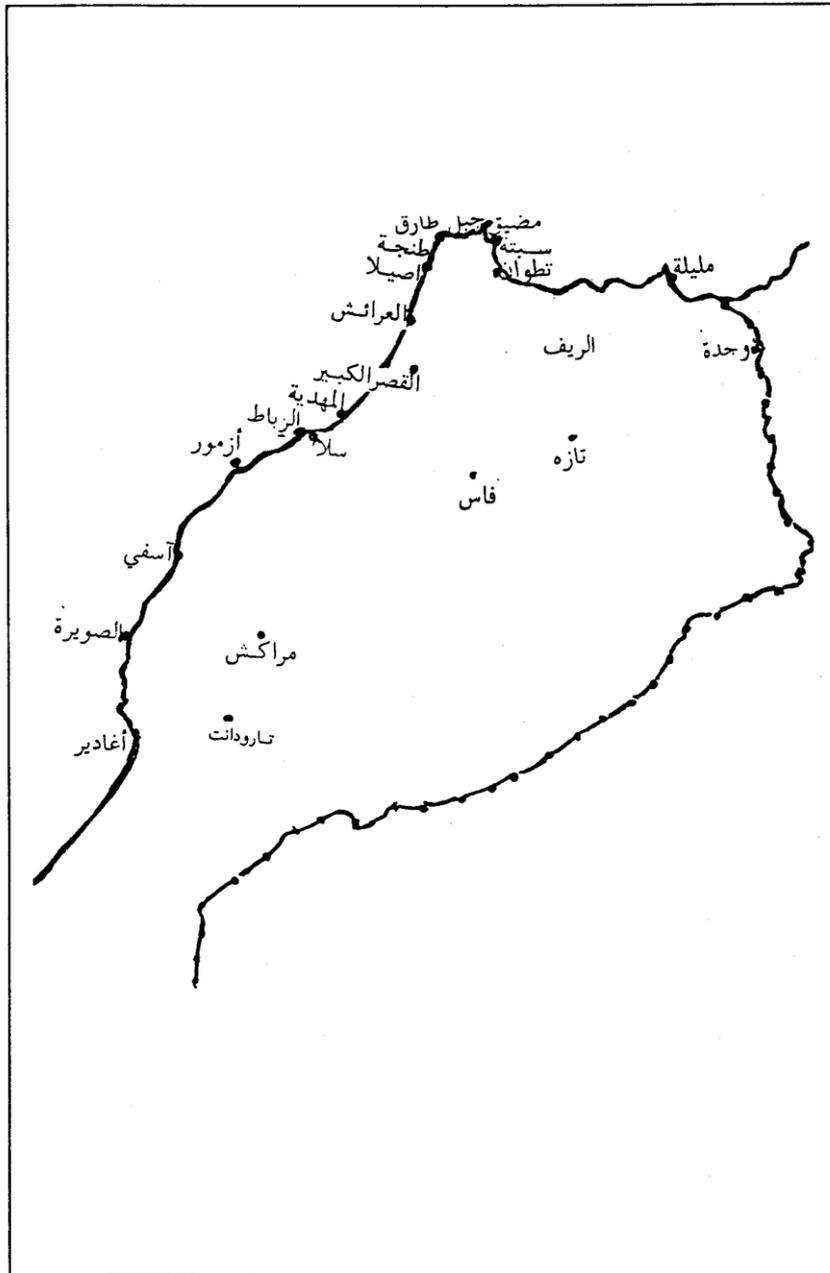
خريطة رقم (٣) حدود المنطقة المدروسة



خريطة رقم (٤) تونس وبعض مدنها

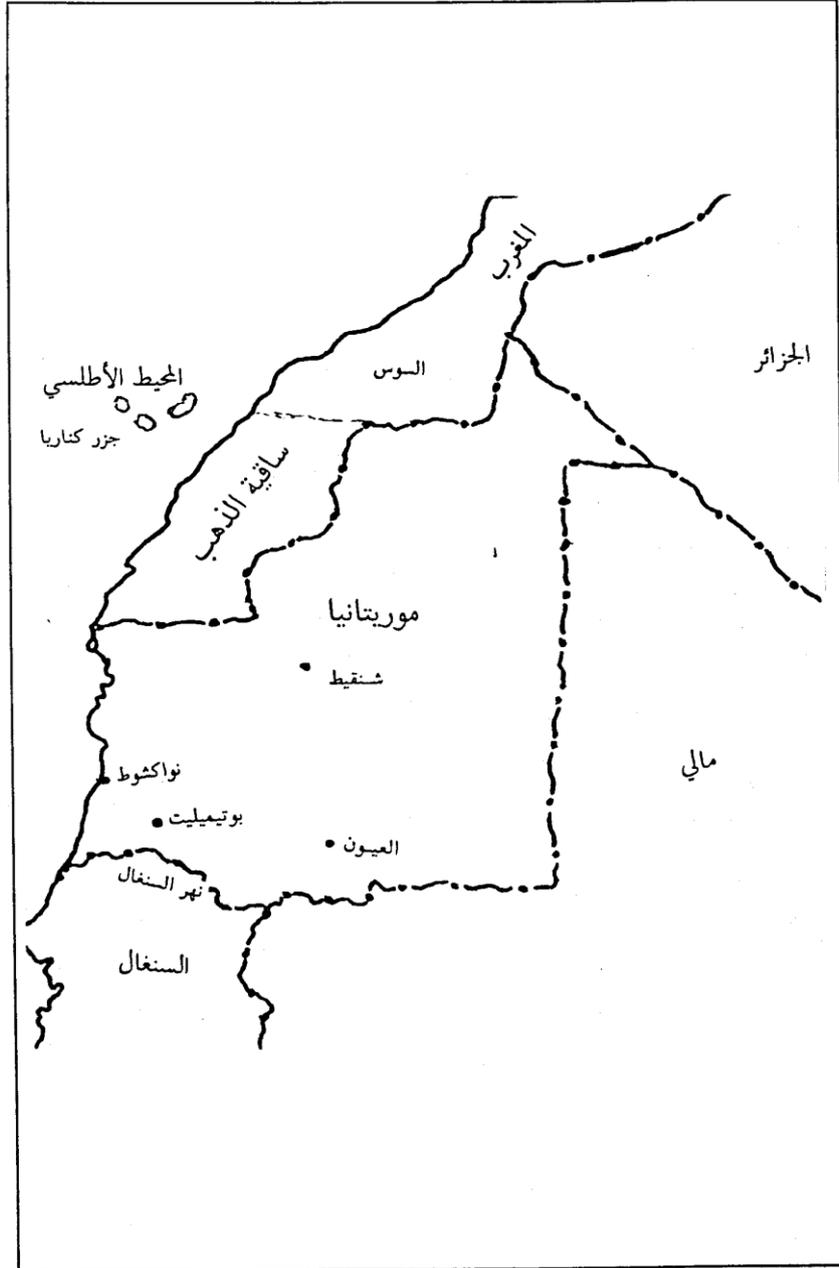


خريطة رقم (٥) الجزائر وبعض مدنها



خريطة رقم (٦) المغرب وبعض مدنها

١٣٠



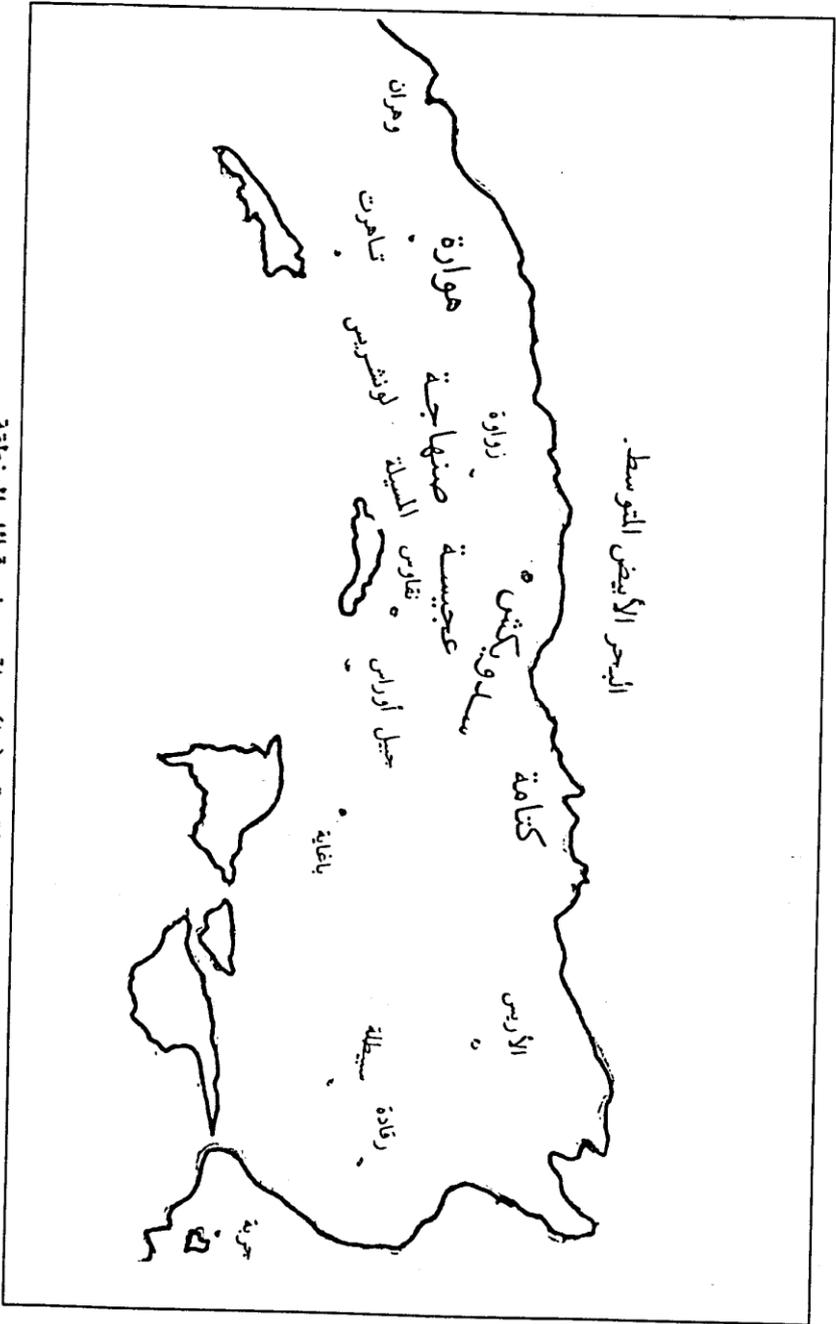
خريطة رقم (٧) موريتانيا وبعض مدنها



خريطة رقم (٨) الأندلس بالنسبة للمنطقة

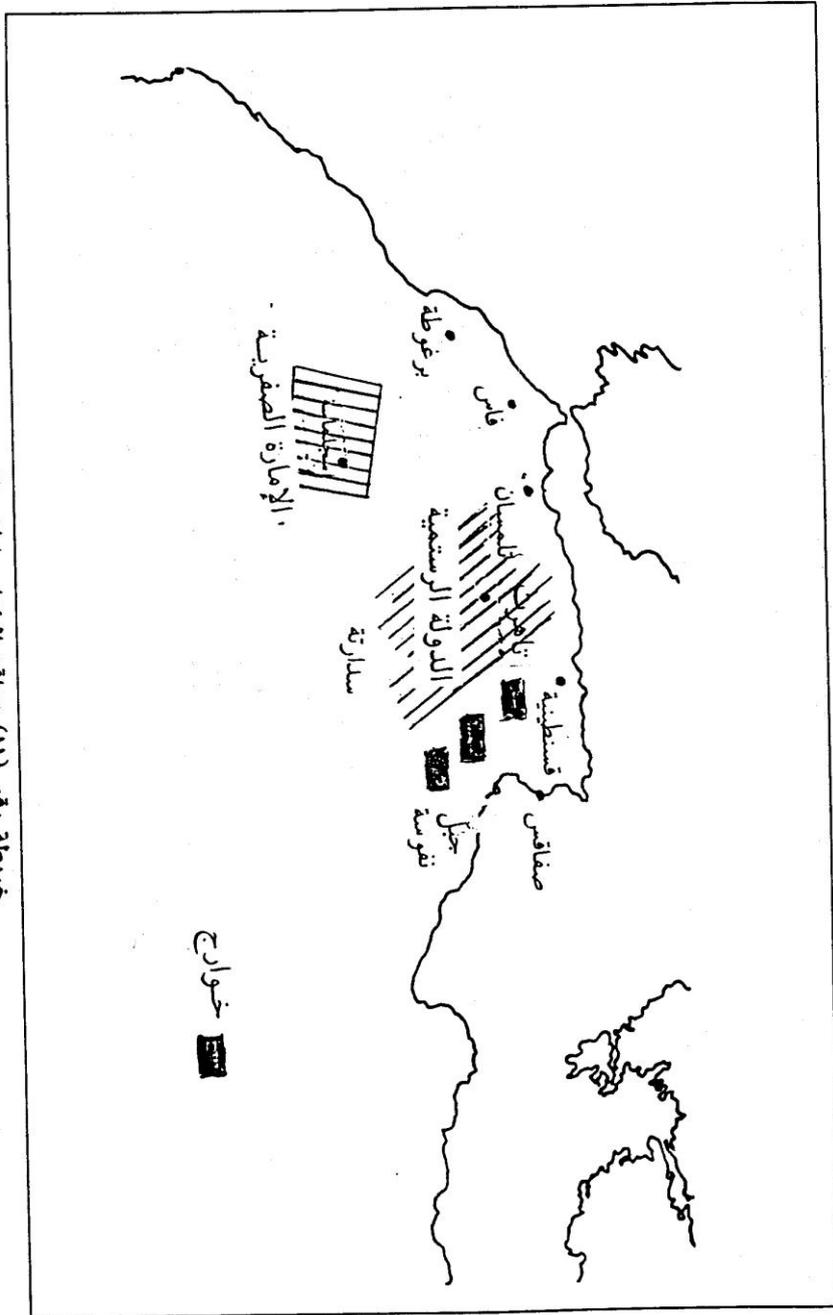
١٣٢



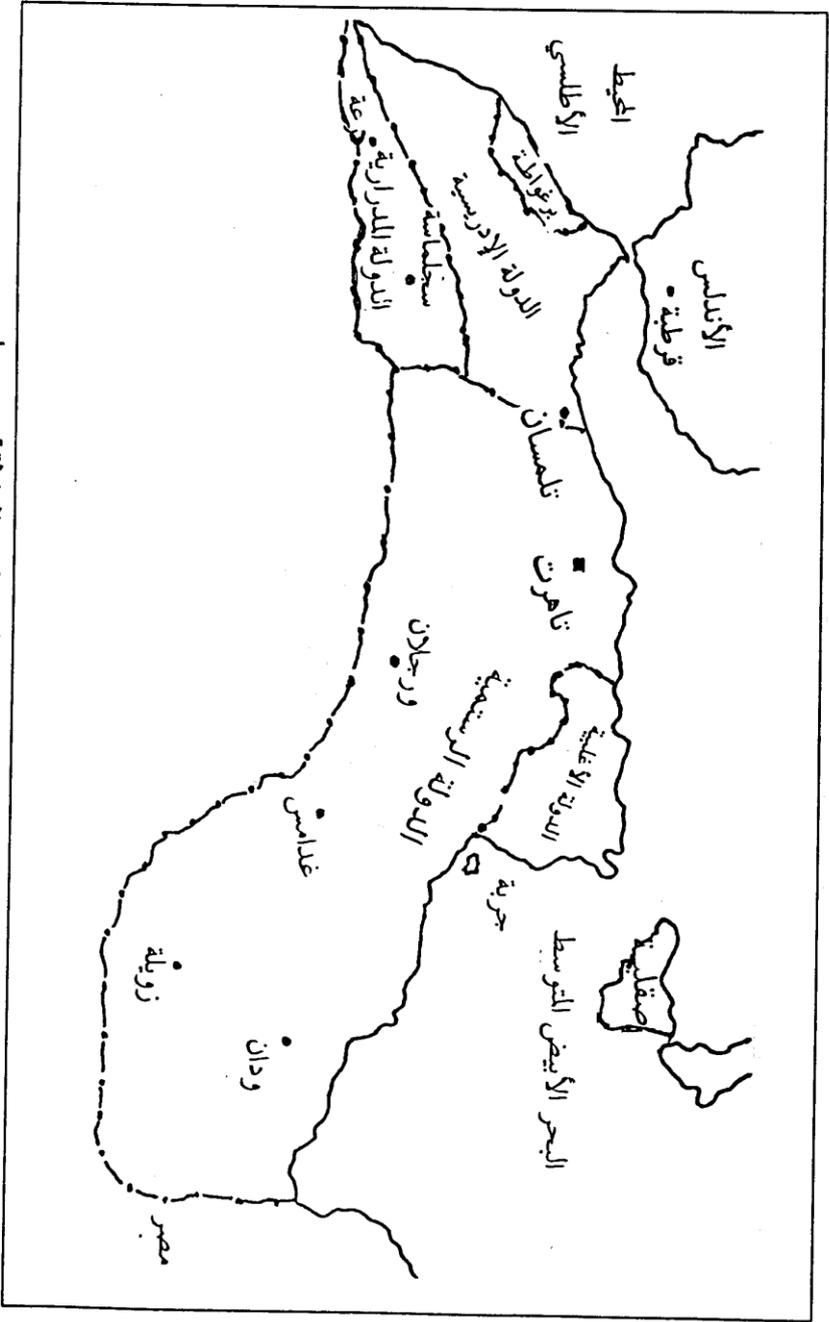


خريطة رقم (١٠) مواقع بعض قبائل المنطقة

خريطة رقم (١١) مواقع الخوارج إبان حكمهم



١٤٥



خريطة رقم (١٢) بعض الدول التي حكمت المنطقة وحدودها

## جغرافية هذه البلاد وتحديد أمكنتها

\*\*\*

هذا المبحث يعتبر توضيحا وتفسيرا لعنوان البحث بطريق غير مباشر ، وفيه أتعرض لحصر المنطقة المعنية بالدراسة والمعبر عنها بغرب إفريقية ، وبادئ ذي بدء أقول :

### المطلب الأول : إفريقية وأصل تسميتها :

إفريقية : المشهور فيها كسر الهمزة في أولها والنسبة إليها إفريقي<sup>(١)</sup> وقيل : بفتحها<sup>(٢)</sup> ، وسميت بإفريقيس بن أبرهة ، وقيل : إفريقيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وهو الذي اختطها وذكرها أنه لما غزا المغرب ، انتهى إلى موضع واسع رحيب ، كثير الماء ، فأمر أن تبنى هناك مدينة ، فبنيت وسمها إفريقية ، اشتق اسمها من اسمه ، ثم نقل إليها الناس ، ثم نسبت تلك الولاية بأسرها إلى هذه المدينة ، وقال ابن لهيعة وغيره : إن أهل إفريقية من ولد فارق بن بيسر ، وكان فارق قد حاز لنفسه من الأرض ، ما بين برقة إلى إفريقية فبالأفارقة سميت إفريقية<sup>(٣)</sup> ، وقال القضاعي : سميت بفارق بن بيسر ابن حام بن نوح ، وقال الحميري : وقيل : سميت بإفريق بن إبراهيم عليه السلام ، من زوجه قطورا<sup>(٤)</sup> .

### المطلب الثاني : تحديد منطقة إفريقية جغرافيا :

وقد قيل في تحديدها جغرافيا أقوال :

الأول : هي الأرض الواقعة بين برقة وطنجة أي : معظم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، يعني ولاية المغرب جميعها<sup>(٥)</sup> .

الثاني : هي ما بين برقة وتاهرت وهو موافق للقول السابق بحذف المغرب<sup>(٦)</sup> .

الثالث : هي من طرابلس إلى بجاية أي بعض ليبيا وتونس وبعض الجزائر<sup>(٧)</sup> .

(١) انظر معجم البلدان ٢٢٨/١ ، فتح المغيث ١٤٨/٣ ، الأنساب ٣٢٦/١ .

(٢) انظر اللباب ٧٩/١ .

(٣) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ١٢٣ .

(٤) انظر معجم البلدان ٢٧٠/١ وحاشرته .

(٥) انظر مسالك البكري ٢١ ، اللباب ٧٩/١ ، دائرة المعارف ٣٣٧/٢ .

(٦) انظر دائرة المعارف ٣٣٨/٢ .

(٧) انظر معجم البلدان ٢٧١/١ ، دائرة المعارف ٣٣٨/٢ ، قادة فتح المغرب ١٤/١ .

الرابع : هي ما بين طرابلس وقسنطينة يعني جمهورية تونس<sup>(٨)</sup> .

الخامس : مدينة القيروان<sup>(٩)</sup> .

السادس : وهو المعني ببحثنا وهو التعريف العصري المشهور في زماننا : قارة إفريقية وهي : إحدى القارات الثلاث في العالم القديم . وهي قارة آسيا ، وقارة إفريقية، وقارة أوروبا ، وإحدى القارات الست في العالم الحديث . بعد اكتشاف الأمريكتين وأستراليا ، بغض النظر عن القارتين المتجمدتين .  
ويحد قارة إفريقية \_ ويقال فيها إفريقيا بالمد \_ من جهة الشرق البحر الأحمر \_ وهو بحر القلزم قديما \_ والمحيط الهندي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الغرب المحيط الأطلسي ، ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط ، وتقع إفريقية القديمة في الجزء الشمالي إلى الغرب من القارة الإفريقية ، بعد مصر وليبيا على الاختلاف المذكور آنفا في تحديدها ، وكأن القارة كلها سميت باسم الولاية بعد ماتقدم من تسمية الولاية باسم المدينة .

### المطلب الثالث : تحديد الأمكنة المعنية بالدراسة وجغرافيتها :

والمنطقة المعنية بالدراسة هي المنطقة الإسلامية ، التي انتشر فيها الإسلام وبت فيها العلم الشرعي من البلدان الواقعة في غرب القارة الإفريقية ، وهي المنطقة الشمالية الغربية والمنحصرة حاليا في تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ، وكلها بلاد إسلامية معروفة الآن بهذه الأسماء ، بعد أن فصل الاستعمار بين بلدان المسلمين بحدود وهمية كان لها كبير الأثر في إضعاف قوتهم .  
ويحد المنطقة المعنية بالدراسة من الشرق ليبيا ، ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي ، ومن الجنوب النيجر ومالي والسنغال .  
وهي تشتمل على : مساحة صحراوية واسعة ، تسمى الصحراء الغربية الكبرى ، وهي تمثل فيها أغلب المنطقة الوسطى والجنوبية ، وأما المنطقة الحيوية فتقع في الشمال ويتخللها سلسلة جبال طويلة تسمى سلسلة جبال أطلس التل ، وسلسلة أخرى نحوها تسمى جبال أطلس الصحراء ، كما يوجد بها بعض الهضاب والأودية<sup>(١٠)</sup> .

(٨) انظر دائرة المعارف ٣٣٨/٢ ؛ معالم تاريخ المغرب ٢٧ .

(٩) انظر المؤنس ١٤ ، فتوح البلدان ٢٧١/١ ، تاريخ علماء الأندلس ١١٢/٢ .

(١٠) انظر جغرافية الوطن العربي والدول ذات الصلة به ص ١٣٠-١٥٣ ، الأطلس العربي ، صورة الأرض .

## وصول الإسلام إلى هذه البلاد

\*\*\*

المطلب الأول : الفتح الإسلامي للمنطقة ( ٢٧هـ - ٩٥هـ ) (١) :

لما توفي رسول الله ﷺ كان الإسلام قد عم جزيرة العرب ثم انتشرت جحافل جيوش الصحابة في الأمصار فاتحين وناشرين لدعوة الإسلام وفي أقل من ربع قرن أتموا فتح كل من العراق ( بين ١٦هـ - ٢١هـ ) وجميع بلاد الشام ( بين ١٣هـ - ١٥هـ ) ومصر ( سنة ٢٠هـ ) وما إن أتم المسلمون الفتح النهائي لمصر بعد معاهدة الإسكندرية سنة ٢١هـ حتى سارع عمرو بن العاص ففتح برقة سنة ٢٢هـ وطرابلس سنة ٢٣هـ وترك في تلك النواحي جزءا من جيشه للحفاظ على البلاد المفتوحة ونشر الإسلام بين أهلها وللتوسع في عمق الصحراء وكان ضمن هذه الحامية عقبة بن نافع الفهري الذي كان له بعد ذلك شأن عظيم في تاريخ إفريقية والمغرب وقد لاحظ عمرو بن العاص حسن انقياد أهل تلك الناحية للإسلام فقوي عزمه على التوغل في إفريقية وأخذ يرسل سرايا فتغير على أطراف إفريقية ، وتعود مظفرة مما شجعه على التفكير في غزوها .

### أصل البربر واستيطانهم المنطقة :

كان البربر بفلسطين ، وكان ملكهم جالوت ، فلما قتله داوود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية - وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء ولا يناهما النيل - فتفرقوا هناك ، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال ، وتقدمت لواتة فسكنت أرض أنطابلس وهي برقة ، وتفرقت في هذا المغرب وانتشروا فيه ، حتى بلغوا السوس ، ونزلت هوارة مدينة لبدة ونزلت نفوسة إلى مدينة سبرت وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك وأقام الأفاقة . ويزعم البربر أنهم من ولد بر بن قيس ، ورد ذلك عبد الله بن صالح فقال : ما جعل الله لقيس ولداً يقال له بر ، وإنما هم من الجبارين الذين قاتلهم داود عليه السلام ، وكانت منازلهم على أيادي الدهر فلسطين ، وهم أهل عمود فأتوا المغرب فتناسلوا به (٢) .

(١) انظر : نهاية الأرب ١٢/٢٠-٤١٤ ، ٥٣/٢٤ ، تاريخ الطبري ٢٥٣/٤-٢٥٧ ، البداية والنهاية ٨/٧ ، ٥٥/١٥١ ، تاريخ الرقيق ٤١-٧٠ ، تاريخ ابن خلدون ١٢٨/٢ ، ١٨٥/٤-١٨٨ ، النجوم الزاهرة ٧٩/١-١٦٠ ، خلاصة تاريخ تونس ٥٤-٦٣ ، الاستقصا ٣٦/١-١٠٠ ، فتوح مصر ١٧٠-٢١١ ، المؤنس ٣٦-٤٠ ، الحلل السندسية ١/٥٣٠-٥٣٨ ، القيروان ٢٤-٤٤ ، تاريخ المغرب العربي ١٣٨/١-١٤٣ ، البيان المغرب ٩/١-٣٩ ، طبقات أبي العرب ١٢-١٦ ، شجرة النور ٩٤-١٠٨ .

(٢) انظر فتوح مصر ١١٦ ، مسالك ابن خرداذبة ٩١ ، العبر ١٢٨/٢ .

وكان يسكن غرب إفريقية أيضا الروم البيزنطيون ، وهم الفرنجة وكانوا قد استولوا على البلاد وأذلوا أهلها والأفارقة ، وهم الذين وفدوا إليها من مختلف البلاد<sup>(١)</sup> .

فتح برقة وزويلة :

سار عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية في الخيل يريد المغرب ، حتى قدم برقة وهي إنطابلس فصالح أهلها بعد أن قاتلهم وحاربهم على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم وكتب لهم في ذلك كتابا .

وكتب عمرو بن العاص على لواتة من البربر في شرطه عليهم أن عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية .

وخالفه عمر بن عبد العزيز لما ولي فكتب في اللواتيات : أن من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليرددتها إلى أهلها .

وقد فتحت بعهد من عمرو بن العاص ، وكان يقول على المنبر : لأهل أنطابلس عهد يوفى به .

ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج إنما كانوا يبعثون الجزية إذا جاء وقتها إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث ، فكانوا أخصب قوم بالمغرب .

ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين .

وكتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها مارأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء ويردوها في الفقراء ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم .

فتح طرابلس :

ثم غزا عمرو بن العاص طرابلس في سنة ثلاث وعشرين ، فنزل على القبة التي على الشرف من شرقها فحاصرها شهرا لا يقدر على شيء ، فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيذا في سبعة نفر ، فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر ، ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر وكان البحر لاصقا بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة في

(١) انظر المغرب الإسلامي ٨٥-٩٤ ، حسن البيان ٨٤-٨٥ ، ١٦٠ ، الحياة الاجتماعية ١٨٩-٢٠٠ ، المجتمع التونسي ٣٦ ، المغرب الكبير ١٣٣/٢-١٤٠ .

مرساها إلى بيوتهم فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ووجدوا مسلكا إليها من الموضوع الذي غاض منه البحر فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فلم يكن للروم مفرع إلا سفنهم وأبصر عمرو وأصحابه السلة في جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ماكان في المدينة، وكان من بسيرت متحصنين واسمها نبارة، وسيرت السوق القديم وإنما نقله إلى نبارة عبدالرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة أطرابلس وأنهم لم يصنع فيهم شيئا ولا طاقة له بهم أمنوا فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة أطرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة سيرت وقد غفلوا وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها فلم ينج منهم أحد واحتوى عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو ( ) .

وكان فتح أطرابلس بعد قتال وافتتحها عمرو بن العاص عنوة وقال الليث بن سعد حدثني مشيختنا أن أطرابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص ، وأصاب عمرو بها أحمالا كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين ، وكتب إلى عمر ابن الخطاب أنا قد بلغنا أطرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها ويفتحها الله على يديه فعل ، فكتب إليه ينهاه عنها ويقول : ماهي بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدورها ، لا يغزوها أحد مابقيت ، وقال مرة المعافري : سمعت عمر بن الخطاب يقول : إفريقية المفرقة ثلاث مرات لأوجه إليها أحدا ماملت عيني الماء .

وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا فكانوا يغدرون به كثيراً ، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم وكان خبرهم قد بلغ عمر ( ) .

وكذلك فإن عمر كان يخشى أن ينفرد بالمسلمين عدوهم ، مع صعوبة نجدتهم لبعدهم عن مركز الخلافة ، فلم يجد عمرو بدا من العودة إلى مصر ، وبقي الأمر كذلك إلى زمن عثمان رضي الله عنه ، فولى على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح .

### فتح إفريقية :

فلما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر ، وأمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يبعث المسلمين في جرائد الخيل ، كما كانوا يفعلون أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ، ويغنمون فكتب في ذلك عبد الله بن سعد إلى عثمان ، وأخبره بقربهم من حرز المسلمين ، ويستأذنه في غزوها فنذب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه في ذلك ، فلما اجتمع الناس — ولم يخالف في غزوها إلا سعيد بن زيد العدوي الذي

( ) فتوح مصر وأخبارها ص ١١٦-١١٧ .

( ) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ١١٧ ، فتوح البلدان ٢٢٥-٢٢٦ ، طبقات أبي العرب ١٦، ١٣، الاستقصا ١/٧٣ .

استمسك برأي عمر \_ (٦) أمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد مصر فيكون إليه الأمر فخرج عبد الله بن سعد إليها، وكان مستقر سلطان إفريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه مابين أطرابلس إلى طنجة ، قال : فلقية جرجير فقاتله فقتله الله وكان الذي ولي قتله عبد الله بن الزبير ، وهرب جيش جرجير فبث عبد الله بن سعد السرايا وفرقها فأصابوا غنائم كثيرة ، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منه ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم ، فقبل ذلك ورجع إلى مصر ، ولم يول عليهم أحدا ، ولم يتخذ بها قيروانا ، فأصاب الفارس يومئذ ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار وكان جيش عبد الله بن سعد ذلك عشرين ألفا .

وكان مع عبد الله بن سعد في تلك الغزوة أيضا : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، والحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ابن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أنيس ، وعمرو بن عوف المزني ، وبلال بن الحارث المزني ، وغيرهم ، وانضم لهم عقبة ومن معه ببرقة ، وذلك سنة سبع وعشرين ، وهي الغزوة المعروفة بغزوة العبادة لكثرة من اشترك فيها ممن اسمه عبد الله من الصحابة ، ولم يكن هناك بد من القتال لأن جرجير قد رفض الإسلام والجزية ورغم ضخامة جيش العدو ( بين ١٠٠ و ١٢٠ ألفا ) فقد انتهت المعارك العديدة التي دارت بين الطرفين على مشارف مدينة سيطة بانتصار المسلمين، وقتل جرجير وكبار قاداته وكثير من جيشه وغنم المسلمون أموالا عظيمة (٧).

ولا يمكن التقليل من شأن هذه الغزوة بسبب عدم بناء مدينة يستقر بها المسلمون، ويكفي أنها أذلت الروم بإفريقية ، بحيث لم يتمكنوا من استرجاع قوتهم بعد ذلك، كما أنها عرفت أهل البلاد \_ ولو جزئيا \_ بالإسلام حتى اعتنقه بعضهم ، ومن ناحية أخرى فقد وقف المسلمون على حالة البربر وعرفوا طبائعهم وعاداتهم عن قرب ، كما أن المنطقة المفتوحة لا يستهان بحجمها .

وفي سنة ٣٣هـ خرج المسلمون بقيادة عبد الله بن سعد أيضا حين نقض أهل إفريقية العهد ، فجاهدوهم حتى دخل بعضهم في الإسلام ، ورضي الباكون بالجزية (٨) .

(٦) انظر طبقات أبي العرب ١٢٤١٣ ، الرياض ١٤/١ .

(٧) انظر فتوح مصر ص ١٢٤-١٢٦ ، فتوح البلدان ٢٢٧ ، البيان المغرب ٢٨/١ ، تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٥ .

(٨) انظر البيان المغرب ١٤/١ ، النجوم الزاهرة ٨٠/١ ، تاريخ الإسلام ١١٥/٢ ، قادة فتح المغرب ٦١/١ .

ثم كانت سنة ٣٤ هـ فخرج إلى المغرب معاوية بن حديج التجيبي ، وكان معه في جيشه عامئذ عبدالمملك بن مروان ، فافتتح قصورا وغنم غنائم عظيمة .

وعن سليمان بن يسار قال : غزونا إفريقية مع ابن حديج ومعنا من المهاجرين والأنصار بشر كثير فنفلنا ابن حديج النصف بعد الخمس ، فلم أر أحدا أنكر ذلك، إلا جبلة بن عمرو الأنصاري .

فانتهى معاوية بن حديج إلى قونية ثم مضى إلى جبل يقال له القرن ، فعسكر بجانبه، وبعث عبدالمملك بن مروان إلى مدينة يقال لها جلولاء في ألف رجل ، فحاصرها أياما، فلم يصنع شيئا فانصرف راجعا فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقية الناس غبارا شديدا ، فظن أن العدو قد طلبهم فكر جماعة من الناس لذلك وبقي من بقي على مصافهم وتسرع سرعان الناس ، فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها فدخلها المسلمون ، وغنموا مافيها وانصرف عبدالمملك إلى معاوية بن حديج فاختلف الناس في الغنيمة ، فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان فكتب إن العسكر رءء للسرية، فقسم ذلك بينهم ، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار ، وضرب للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم .

ويقال : بل غزاها معاوية بن حديج بنفسه ، فحاصرها فلم يقدر عليهم ، فانصرف آيسا منها وقد جرح عامة أصحابه ، وقتل منهم ففتحها الله بعد انصرافه بغير خيل ولا رجال فرجع إليها ومن معه وفيها السي ، ولم يردهم أحد ، فغنموا وانصرف منها راجعا إلى مصر (١) .

ثم اشتغل المسلمون في المشرق بما أهمهم عن شأن المغرب ، حتى اعتدل الأمر لمعاوية رضي الله عنه سنة ٤١ هـ ، فأرسل إليها معاوية بن حديج ، وفي سنة ٤٢ هـ غزاها عقبة ابن نافع ويبدو أن هاتين الغزوتين لم تتوعلا داخل أرض إفريقية ، أما الغزوة الموالية فكانت ذات شأن ، وقد قادها معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ ، وكانت ردا على المحاولة التي قامت بها الدولة البيزنطية لإعادة إفريقية إلى نفوذها ، فهزم معاوية جيوش البيزنطيين ، وأعاد فتح إفريقية مدينة مدينة حتى وصل جبل القرن فعسكر هناك وبنى مساكن للجيوش ، واتخذ ذلك الموقع قيروانا (٢) وجه منه سراياه إلى البلاد، ففتح سوسة وجلولاء والجُم وبنزرت ، ولا شك أنه قد سيطر على جميع تلك الجهات لأنه تمكن سنة ٤٥ هـ من غزو صقلية لأول مرة في التاريخ الإسلامي، كما أغزى جيشه جزيرة جربة ، ففتحت سنة ٤٥ هـ بقيادة رويفع بن ثابت الأنصاري ، وقد آتت هذه

(١) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ١٣١ ، طبقات أبو العرب ١٥ ، الرياض ١/٩٣، ٣٠ ، تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٥ ، تاريخ المغرب العربي ١/١٦٧ .

(٢) بفتح القاف والراء : لفظ فارسي معرب وقد تكلمت به العرب قديما قال امرئ القيس :

وغارة ذات قيروان كأن أسرابها الرعال

وهي اسم للقافلة وللجيش ومحط أثقاله وموضع اجتماع الناس . انظر معجم البلدان ٤/٤٢٠ ، مرصد الاطلاع ٣/٦١٣٩ ، الحلل السندسية ١/٢٥٩ ، قادة فتح المغرب ١/١٠٣ ، معالم تاريخ المغرب ٣٦ ، المعالم ٨/١ .

الغزوة أكلها حيث ظهر الإسلام في البربر ، وتمكن الجيش الإسلامي من التوغل في أراضيهم ، وكسر شوكتهم ( ) .

فغزا معاوية بن حديج إفريقية ثلاث غزوات ، أما الأولى فسنة أربع وثلاثين ، قبل قتل عثمان وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة أربعين ، والثالثة سنة خمس وأربعين ( ) .

ولما قتل عثمان وولي أمر مصر محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة لم يوجه إليها أحداً ، فلما ولي معاوية بن أبي سفيان ولي معاوية بن حديج السكوني مصر ، وهو الذي بعث عقبة بن نافع لغزوها ( ) .

فخرج عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأربعين ، ومعه بسر بن أرطأة ، وشريك ابن سمي المرادي ، فأقبل حتى نزل بمغمداش من سرت \_ وكان توجه بسر إليها سنة ست وعشرين \_ فأدركه الشتاء ، وكان مضعفاً وبلغه أن أهل ودان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ما كان بسر بن أبي أرطأة فرض عليهم \_ وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بسرا قبل ذلك ، وهو محاصر لأهل أطرابلس فافتتحها \_ فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك ، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي ، وزهير بن قيس البلوي ، ثم سار بنفسه وبمن خلف معه أربعمائة فارس ، وأربعمائة بعير ، وثمانمائة قرية ، حتى قدم ودان فافتتحها ، وأخذ ملكهم فجذع أذنه فقال : لم فعلت هذا بي وقد عاهدتني ؛ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبا لك إذا مسست أذنك ذكرته فلم تحارب العرب ، واستخرج منهم ما كان بسر فرضه عليهم ثلاثمائة وستين رأساً ، ثم سألمهم عقبة : هل من ورائكم أحد ؟ فقيل له جرمه وهي مدينة فزان العظمى فسار إليها ثمانين ليال من ودان ، فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا . فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة ، وأرسل عقبة خيلاً ، فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة ، وقد لغب وكان ناعماً فجعل يبصق الدم فقال له : لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا ؟ فقال عقبة أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب ، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبداً ، ووجه عقبة الرجل من يومه إلى المشرق ، ثم مضى على جهته من فوره ذلك إلى قصور فزان فافتتحها قصراً قصراً ، حتى انتهى إلى أقصاها ، فسألمهم هل من ورائكم أحد ؟ قالوا نعم : أهل خاوار وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل ، وهو قصبه كوار فسار إليهم خمسة عشر ليلة ، فلما انتهى تحصنوا فحاصروهم شهراً ، فلم يستطع لهم شيئاً فمضى أمامه على قصور كوار فافتتحها ، حتى انتهى إلى أقصاها وفيه ملكها فأخذه فقطع أصبعه ، فقال : لم فعلت هذا بي ؟

( ) انظر البيان المغرب ١٧/١ ، ١٠ ، الرياض ٢٨/١ ، النجوم الزاهرة ١٣٠/١ ، قادة فتح المغرب ٧٩/١ ، المعالم ٤٥/١ ، حسن البيان ٧٦ .

( ) (فتوح مصر وأخبارها ص ٢٣٢ وفيه سنة خمسين والصواب ما ذكرته كما في غيره من المراجع وأما سنة خمسين ففيها تأسست القيروان على يد عقبة كما سيأتي وانظر الإصابة ٤١١/٣ .

( ) (فتوح البلدان ٢٢٨ . ٢

قال : أدبا لك إذا أنت نظرت إلى اصبعك لم تحارب العرب ، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا ، فسألهم : هل من ورائكم أحد ؟ فقال الدليل : ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة ، فانصرف عقبة راجعا . فمر بقصر خاوار ، فلم يعرض له ولم ينزل بهم ، وسار ثلاثة أيام ، فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بماء اسمه اليوم ماء فرس ، ولم يكن به ماء فأصابهم عطش شديد أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله ، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض ، حتى كشف عن صفاة فانفجر منها ماء ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء ، فأبصره عقبة فنادى في الناس أن احتفروا فاحتفروا سبعين حسيا ، فشربوا واستقوا فسمي لذلك ماء فرس ، ثم رجع عقبة إلى خاوار من غير طريقه التي كان أقبل منها فلم يشعروا به ، حتى طرقتهم ليلا قد تمهدوا في أسرابهم ، فاستباح ماني المدينة من ذرياتهم وأموالهم وقتل مقاتلتهم ، ثم انصرف راجعا ، فسار حتى نزل بموضع زويلة... ثم ارتحل ، حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر ، وقد جمعت خيولهم وظهرهم ، فسار متوجها إلى المغرب ، وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى... مزاتة ، فافتتح كل قصر بها إلى... ، ثم بعث خيلا إلى غدامس فافتتحت غدامس فلما انصرف... سار إلى قصبة فافتتحها وافتتح قصطيليه ثم انصرف إلى القيروان فلم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج بناه قبله فركب والناس معه ، حتى أتى موضع القيروان اليوم وكان واديا كثير الشجر كثير القطف تأوي إليه الوحوش والسباع والهوام ، ثم نادى يا أهل الوادي ارتحلوا رحمكم الله فإننا نازلون نادى بذلك ثلاثة أيام فلم يبق من السباع ولا الوحوش ولا الهوام إلا خرج ، وأمر الناس بالتنقية والخطط ونقل الناس من الموضع الذي كان معاوية بن حديج نزله ، إلى مكان القيروان اليوم وركز رحمة وقال هذا قيروانكم .

وقال زياد بن العجلان : إن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمسست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت ( ) .

وكان ذلك سنة ٥٠ هـ حيث بدأت إفريقية الإسلامية عهدا جديدا مع عقبة بن نافع المتمرس بشؤون إفريقية منذ حداثة سنه فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر ، ونقضهم العهود ، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين ومنها تنطلق جيوشهم ، فأسس مدينة القيروان وبني جامعها وافتتح كثيرا من البلدان ، وعمل على نشر الإسلام بين البربر وشرده من بقي الكفر .

وقال لأصحابه حين أراد تأسيسها : إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجابه منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر ( ) .

( ) (فتوح مصر وأخبارها ص ٤٣٢-١٣٣ .

( ) (انظر البيان المغرب ١/١٩ ، الرياض ١/١٠ ، حسن البيان ٧٦ .

وقال موسى بن علي : أول من بنى القيروان عقبة بن نافع الفهري اختطها ثم بنى وبني الناس معه الدور والمسكن ، وبني المسجد الجامع بها<sup>(٦)</sup> .

ولما أراد عقبة تمصير القيروان فكر في موضع المسجد منه فأري في منامه كأن رجلاً أذن في الموضع الذي جعل فيه مئذنته ، فلما أصبح بنى المنبر في موقف الرجل ثم بنى المسجد<sup>(٧)</sup> .

ثم عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج وولى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وهو أول من جمعت له ، فولى المغرب أبا المهاجر مولاه وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة أحسن العزل ، فخالفه أبو المهاجر فأساء عزله وسجنه وأوقره حديدا حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه ، فخرج عقبة حتى أتى قصر الماء ، فصلى ثم دعا وقال اللهم لا تمنني حتى تمكني من أبي المهاجر دينار بن أم دينار ، فبلغ ذلك أبا المهاجر فلم يزل خائفا منذ بلغته دعوته فلما قدم عقبة مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد فأقسم بالله لقد خالفه ماصنع أبو المهاجر ولقد أوصيته بك خاصة ، وقد كان قيل لمسلمة لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلا ، فقال مسلمة : إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل فأحببنا أن نكافئه ، فلما قدم أبو المهاجر إفريقية كره أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ، ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى مدينة تيكروان ونزل ، وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ، ثم يقفلون منها إلى الفسطاط ، وأول ما أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا وكان مسلمة بن مخلد الذي عقد له على الجيش الذين خرجوا معه إليها ، فلم يزالوا بها حتى قتل ابن الزبير ، فخرجوا منها<sup>(٨)</sup> .

وكانت لأبي المهاجر مع البربر سياسة حسنة ، فقد تألف قادتهم وعلى رأسهم كسيلة البربري فانقادوا للإسلام وازدادت رقعة البلاد المفتوحة حتى بلغت تلمسان من بلاد الجزائر ، وطالت مدة إقامة أبي المهاجر ومن معه من الصحابة والتابعين .

ثم قدم عقبة على معاوية بن أبي سفيان فقال له فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لي ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي فاعتذر إليه معاوية ، وقال : قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذل مهجته ، وقد رددتك على عملك ، ويقال : إن معاوية ليس

(٦) فتوح البلدان ٢٣٠ .

(٧) فتوح البلدان ٢٣١ وانظر لتأسيس القيروان أيضا : البيان المغرب ١/١٩ ، الرياض ١/٨٤ ، حسن البيان ٧٦ ، تاريخ خليفة ٢١٠ تاريخ الطبري ٤/١٧٨ ، البداية والنهاية ٨/٤٥ ، الاستيعاب ٣/١٠٨ ، الإصابة ٣/٨٠ ، سيرة القيروان ٧٢-٧٤ ، معالم تاريخ المغرب ١١٤ .

(٨) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٣-١٣٤ .

هو الذي رد عقبة بن نافع ولكنه قدم على يزيد بن معاوية بعد موت أبيه ، فرده واليا على إفريقية وذلك  
أصح لأن معاوية توفي سنة ستين (١).<sup>٢</sup>

فعاد عقبة ثانية إلى القيروان سنة ٦٢ هـ بأمر من يزيد بن معاوية ، فأعاد عمارة المدينة ودعا لها ومن معه  
من الصحابة ، وقد بلغوا خمسة وعشرين صحابيا ، وكان مما قال في دعائه وهم يؤمنون : اللهم املاها  
علما وفقها وأعمرها بالمطيعين والعابدین ، واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك ، وأعز بها الإسلام  
وامنعها من جبابرة الأرض (٢).<sup>٣</sup>

وخرج عقبة للغزو بعد ما وثق أبا المهاجر في وثاق شديد وأساء عزله ، فغزا به معه إلى السوس وهو في  
حديد وأصل السوس بطن من البربر يقال لهم : أنبيه ، فجول في بلادهم لا يعرض له أحد ، ولا يقاتله  
فانصرف إلى إفريقية ، ففتح جميع بلاد المغربين الأوسط والأقصى ، أي ما يعرف الآن بالجزائر والمغرب ،  
حتى وصل إلى البحر المحيط ، فأدخل فيه قوائم فرسه ، وقال كلمته المشهورة : اللهم اشهد أني قد بلغت  
المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك ، ثم كر راجعا وفتح  
في طريقه بعض بلاد السودان ، فلما اقترب من مدينة تهودة صرف أصحابه إلى منازلهم ثقة بما دوخ من  
البلاد ، فعرض له كسيلة بن لمزم في جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة وكان  
قد دار بين عقبة وكسيلة مواقف جعلت كسيلة يضم حقدًا شديدًا على عقبة لأنه أذله في تلك المواقف  
ولم يسمع نصيحة أبي المهاجر في تألفه وإعزازة (٣) ، فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل عقبة ومن كان معه ، وقتل  
أبو المهاجر وهو موثق في الحديد ، ثم سار كسيلة ومن معه حتى نزلوا الموضع الذي كان عقبة اختطه فأقام  
به وقهر من قرب من باب قابس ومايليه ، وجعل يبعث أصحابه في كل وجه ويقال : بل خرج عقبة بن  
نافع إلى السوس واستخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي وكانت إفريقية يومئذ  
تدعى مزاق ، فتقدم عقبة إلى السوس وخالفه رجل من العجم في ثلاثين ألفا إلى عمر بن علي وزهير بن  
قيس وهما في ستة آلاف ، فهزمه الله وخرج ابن الكاهنة البربري على أثر عقبة كلما رحل عقبة من منهل  
دفنه ابن الكاهنة فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس ، ولا يشعر بما صنع البربري ، فلما انتهى  
عقبة إلى البحر أقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره ، ثم قال : اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازا  
لجزت وانصرف راجعا والمياه قد غورت وتعاونت عليه البربر ، فلم يزل يقاتل وأبو المهاجر معه في الحديد

(١) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٤ .

(٢) طبقات أبي العرب ٨ ، وانظر البيان المغرب ٣٣/١ ، حسن البيان ١٨٧ .

(٣) مقدمة دولة الأدارسة ص ١٥ .

فلما استحر الأمر أمر عقبة بفتح الحديد عنه ، فأبى أبو المهاجر فقال : ألقى الله في حديدي ، فقتل عقبة وأبو المهاجر ومن معهما<sup>(١)</sup> .

وكان لهذه الحادثة أثر عميق في نفوس المسلمين .

وأما زهير بن قيس البلوي خليفة عقبة على القيروان فقد اضطر للسير نحو المشرق ، فأقام ببرقة إلى أن جاء المدد من عبد الملك بن مروان سنة ٦٩هـ ، فسار إلى القيروان واستنقذها من يد كسيلة الذي اضطرت صفوفه لأن المسلمين البربر قد تنازعوها معه ولم تذكر المصادر أن كسيلة قد أساء إلى المسلمين في الفترة التي حكم فيها القيروان ، وقد دامت مدة خمس سنوات .

ويقال إن عبد العزيز بن مروان لما ولي مصر كتب إلى زهير بن قيس وزهير يومئذ ببرقة ، يأمره بغزو إفريقية فخرج في جمع كثير فلما دنا من قونية وبها عسكر كسيلة بن لمزم عباً زهير لقتاله ، وخرج إليه فاقتتلا فقتل كسيلة ومن معه ثم انصرف زهير قافلاً إلى برقة .

وفي هذه الموقعة قتل كسيلة ومن معه من الروم وملوك البربر وأشرفهم وفرسانهم وخلد أهل إفريقية إلى الطاعة وتمهدت البلاد لزهير بن قيس البلوي فخاف على نفسه الفتنة ، لما رأى من عظمة الملك وكان من رؤساء العابدين وكبار الزاهدين ، وقرر الرحيل إلى المشرق بينما أقام معظم أصحابه بالقيروان ، لكنه استشهد في قلة من أصحابه على يد الروم الذين أغاروا على برقة ، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه رضي الله عنهم مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين ، وبموت زهير اختلت الأمور في إفريقية من جديد إلا أن الوضع بالمشرق لم يكن يسمح بإرسال من يعيد الأمور إلى نصابها<sup>(٢)</sup> .

ثم قدم حسان بن النعمان واليا على المغرب أمره عليها عبد الملك بن مروان في سنة ثلاث وسبعين ، وذلك بعد أربع سنوات ، فمضى في جيش كبير ، حتى نزل أطرابلس ، واجتمع إليه بها من كان خرج من إفريقية وأطرابلس ، وانضم إليه كثير من أهل مصر وممن أسلم من بربر إفريقية ، فوجه على مقدمته محمد بن أبي بكيرة ، وهلال بن ثروان اللواتي ، وزهير بن قيس ، ففتح البلاد ، وأصاب غنائم كثيرة ، وخرج إلى مدينة قرطاجنة ، ففتحها واضطر إلى هدمها لأن أهلها غدروا به ، وفرض سيطرته على كامل تلك المنطقة ، وأثنى في الروم والبربر بالقتل .

ثم توجه حسان لمحاربة الكاهنة ، لأنها هي الخطر الوحيد الذي بقي يهدد الكيان الإسلامي في إفريقية والمغرب ، وقد قال له البربر المسلمون : إن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند ، فغزا الكاهنة وهي إذ ذاك ملكة البربر ، وقد غلبت على جل إفريقية فلقبها على نهر يسمى نهر البلاء ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فهزمته ، وقتلت من أصحابه وأسرت منهم ثمانين رجلاً ، وأفلت حسان ونفذ من مكانه إلى

(١) انظر الرياض ٣٩/١ ، الاستقصا ٨٢/١ ، فتوح مصر ص ٢٣٤-١٣٥ .

(٢) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٥ ، المغرب الكبير ٢/٢٣٤ ، البيان المغرب ٣١/١ ، الرياض ٤٦/١ .

أنطابلس فنزل قصورا من حيز برقة فسميت قصور حسان ، واستخلف على إفريقية أبا صالح ، وقامت الكاهنة بتخريب إفريقية ظنا منها أن ذلك هو غاية مطلب المسلمين من إفريقية ، وقد أثار عملها نقمة كثير من سكان تلك المدن فاستجاروا بالمسلمين<sup>(٣)</sup> .

وكانت أنطابلس ولويبا ومراقية إلى حد أجدابية من عمل حسان ، فأحسنّت الكاهنة أسارى من أسرته من أصحابه إلى أن سار إليها حسان ومن معه في جيش لم يدخل إفريقية مثله قط ، فلقي الكاهنة في أصل جبل فقتلت وعامة من معها، فسميت بئر الكاهنة . وطلب الباقون الأمان ، فاشترط عليهم حسان أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب ، فأجابوه ؛ وأسلموا على يديه ، وبذلك انكسرت شوكة الروم والبربر بإفريقية نهائيا<sup>(٤)</sup> .

ثم انصرف حسان فنزل موضع القيروان إفريقية ، وبنى مسجد جماعتها ودون الدواوين، واتجه إلى ناحية قرطاجنة ، فبنى مدينة تونس ، وأنشأ بها دارا لصناعة السفن ، وحفر إليها البحر فأصبحت ميناء هاماً ، وبنى جامع الزيتونة ، ووضع الخراج على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر ، وعامتهم من البرانس إلا قليلاً من البتر ، وأقام حسان بموضعه حتى استقامت له البلاد ، ثم توجه إلى عبد الملك بغنائمه في جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ، وولى على الصدقات حنشا الصنعاني ، وبذلك تمهدت إفريقية وأصبحت دار إسلام وحسنت طاعة أهلها ، وأقام بها حسان لا يغزو أحدا ولا ينازعه أحد لأن جميع من بها إما مسلم مطيع ، أو كافر خاضع مستكين ، ووجه حسان عناية كاملة لنشر الدين الإسلامي واللغة العربية ، فدخل البربر في دين الله أفواجا ، خاصة وأن حسانا كان إلى جانب ذلك يقسم الفيء والأرض بينهم واستمر حسان في تركيز مبادئ الإسلام لدى أهل إفريقية وإعادة تعمير ماخربته الكاهنة حتى رجع إلى المشرق سنة ٨٥ هـ ، ويمكن أن نعتبر أن فتح إفريقية قد تم نهائيا في هذه المرحلة ، لولا وجود بعض البؤر التي لم تفتح وبقيت تشكل خطرا على الإسلام مثل قلعة زغوان الواقعة بين القيروان وتونس، وبعض المدن الواقعة في أطراف إفريقية<sup>(٥)</sup> .

ولما مر حسان ببرقة أمر على خراجها إبراهيم بن النصراني ، ثم مضى فمر بعبد العزيز بن مروان وهو بمصر ، ثم نفذ إلى عبد الملك فسر عبد الملك بما أورد عليه حسان من فتوحه وغنائمه ، ويقال بل أخذ منه عبدالعزيز كل ما كان معه من السبي، وكان قد قدم معه من وصائف البربر بشيء لم ير مثله جمالاً ، فكان

(٣) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٦ ، البيان ٣٥/١ ، المعالم ٦١/٢-٦٤ ، الاستقصا ٩٣/١ ، حسن البيان ١٥٨ ، الرياض ٥٣/١ .

(٤) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٦ ، البيان المغرب ٣٨/١ ، تاريخ ابن خلدون ١٨٧/٤ .

(٥) انظر المعالم ٦٩/١ ، البيان المغرب ٣٨/١-٤١ ، الرياض ٥٦/١ .

نصيب الشاعر يقول : حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسان مائتي جارية منها مايقام بألف دينار .

ثم أغارت الروم بعد حسان على أنطابلس فهرب إبراهيم بن النصراني ، وخلي أهل أنطابلس وأهل ذمتها في أيدي الروم ، فرأسوها أربعين ليلة حتى أسرعوا فيها الفساد، وبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان ، فأرسل إلى زهير بن قيس ، وكان خرج مع حسان ، فلما بلغ مصر أقام بها فأمره عبد العزيز بالنهوض إلى الروم ، ولم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلا...، وكان عبد العزيز عاتبا على زهير بن قيس، لأنه كان قاتله حين وجهه أبوه مروان بن الحكم من ناحية أيلة من قبل أن يدخل مصر ، فقال له : ما علمتك يا زهير إلا جلفا جافيا ، فقال له زهير : ما كنت أرى يا ابن ليلى أن رجلا جمع ما أنزل الله على محمد ﷺ من قبل أن يجتمع أبواك جلف جاف ، ماهو بالجلف ولا الجاف ، أنا منطلق فلا ردي الله إليك ، فخرج حتى إذا كان بدرنة من طبرقة من أرض أطرابلس لقي الروم وهو في سبعين رجلا ، فتوقف ليلحق به الناس ، فقال له فتى شاب كان معه : جبت يا زهير ، فقال : ما جبت يا ابن أخي ، ولكن قتلتني وقتلت نفسك ! فلقبهم فاستشهد زهير وأصحابه جميعا ، فقبورهم هنالك معروفة إلى اليوم ، وكان مقتل زهير وأصحابه في سنة ست وسبعين ( ) .

وقدم حسان بن النعمان من قبل عبد الملك متوجها إلى المغرب ، فلما قدم مصر ، قال لعبد العزيز : اكتب إلى عبدك بالإعراض عن أنطابلس فقال له عبد العزيز : ما كنت لأفعل بعد إذ ضيعتها فاستولت عليها الروم. فقال حسان : إذن أرجع إلى أمير المؤمنين فقال : ارجع . فانصرف حسان راجعا إلى عبد الملك وخلف ثقله بمصر فقدم على عبد الملك وهو مريض ووجه عبد العزيز موسى بن نصير إلى المغرب ، فأخبر حسان عبد الملك بذلك فخر عبد الملك ساجدا وقال : الحمد لله الذي أمكنني من موسى لشدة أسفه عليه ، وكان عاملا لعبد الملك على العراق مع بشر بن مروان فعتب عليه عبد الملك فأراد قتله فافتداه منه عبد العزيز بمال لما رأى من عقل موسى بن نصير ولبه وكان عنده بمصر ، ثم لم يلبث حسان بن النعمان إلا يسيرا حتى توفي ، وقدم موسى بن نصير المغرب في سنة ثمان وسبعين .

وأمر موسى بن نصير على إفريقية سنة تسع وسبعين ، فعزل أبا صالح ، وافتتح عامة المغرب ، وواتر فتوحه وكتب بها إلى عبد العزيز بن مروان ، وبعث بغنائمه وأنهاها عبد العزيز إلى عبد الملك ، فسكن ذلك من عبد الملك بعض ما كان يجد على موسى ثم إن موسى بن نصير حين غزا المغرب ، بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف ، وبعث ابن أخيه في جيش آخر ، فأصاب مائة ألف ، فلما أتى كتبه بذلك قال الناس : ابن نصير والله أحق من أين له عشرون ألفا يبعث بها إلى أمير المؤمنين في الخمس ؟ فبلغ ذلك موسى بن نصير ، فقال : لبيعتوا من يقبض لهم عشرين ألفا ، ثم توفي عبد الملك بن مروان ،

( ) فتوح مصر وأخبارها ص ٢٣٦-١٣٧ .

وكانت وفاته يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، سنة ست وثمانين ، واستخلف الوليد بن عبد الملك فتواترت فتوح المغرب على الوليد من قبل موسى بن نصير ، فعظمت منزلة موسى عنده واشتد عجبه به (١) .

ووجه موسى بن نصير ابنه مروان بن موسى إلى طنجة مرابطا على ساحلها فجهد هو وأصحابه فانصرف ، وخلف على جيشه طارق بن عمرو ، وكانوا ألفا وسبعمائة .

ويقال : إن موسى بن نصير خرج من إفريقية غازيا إلى طنجة ، فهو أول من نزل طنجة من الولاة وبها من البربر بطون من البتر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطاعة، فلما دنا من طنجة ، بث سرايا فانتهت خيله إلى السوس الأدنى ، فوطأهم وسباهم وأدوا إليه الطاعة وولى عليهم وليا أحسن فيهم السيرة . وهذه المنطقة من السوس الأدنى هي منطقة شنقيط ، التي خلت منذ تلك الفترة من كل ديانة عدا الإسلام (٢) .

ثم إن موسى عزل الذي كان استعمله على طنجة ، وولى طارق بن زياد ثم انصرف إلى القيروان ، فأقام طارق هناك مرابطا زمانه ، وذلك في سنة اثنين وتسعين .

وكان المجاز الذي بينه وبين أهل الأندلس عليه رجل من العجم ، يقال له : يليان صاحب سبته ، وكان على مدينة على المجاز إلى الأندلس يقال لها : الخضراء والخضراء مماليي طنجة ، وكان يليان يؤدي الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس وكان لذريق يسكن طليطلة فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تماديا ، وكان ليليان قد بعث بابنة له إلى لذريق صاحب الأندلس ليؤدبها ويعلمها فأحبها ، فبلغ ذلك يليان فقال : لأرى له عقوبة ولا مكافأة إلا أن أدخل عليه العرب ، فبعث إلى طارق أي مدخلك الأندلس وطارق يومئذ بتلمسين ، وموسى بن نصير بالقيروان، فقال طارق : فإني لا أطمئن إليك حتى تبعث إلي برهينة ، فبعث إليه بابنتيه ولم يكن له ولد غيرها ، فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منهما ثم خرج طارق إلى يليان وهو بسبته على المجاز ففرح به حين قدم عليه وقال له : أنا مدخلك الأندلس وكان بين المجازين جبل يقال له اليوم جبل طارق فيما بين سبته والأندلس فلما أمسى جاءه يليان بالمراكب ، فحمله فيها إلى ذلك المجاز ، فكان ماكان من فتح الأندلس (٣) .

فكان دور موسى بن نصير تمهيد جميع ماتبقى في نواحي إفريقية فسيطر على قبائل المغرب الأوسط ومدنه ووجه عنايته للغزو البحري فغزا صقلية وافتتح سرقوسة وسردانية ثم وجه جيشه إلى المغرب الأقصى ففتح

جميعه وتسابق البربر إلى اعتناق الإسلام فكلف من يعلمهم اللغة العربية وشرائع الإسلام وبذلك تم نهاء فتح إفريقية والمغرب ودان أهل تلك البقاع بالإسلام وانتهت الانتفاضات المتكررة للبربر كما قال ابن أبي زيد القيرواني : ارتدت البربر اثني عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ولم يستقر الإسلام إلا على يد موسى بن نصير ( ) .

### المطلب الثاني : في موريتانيا ؛ هل هي من بلاد المغرب المفتوحة أم من بلاد السودان ؟ :

إن المتأمل في مسيرة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب يجد أن جيوش المسلمين قد جابت مواطن البربر وأوغلت حتى وصلت إلى بلاد السودان بالمفهوم القديم لمعنى بلاد السودان وعليه فليس يختلف الأمر بالنسبة لوصول الفتح الإسلامي إن قيل إن بلاد شنقيط من المغرب أم من السودان ، والصحيح الذي لامرية فيه أنها من المغرب وكانت تسمى شنقيط ، وبعضهم يطلق عليها بلاد التكرور ( ) ، ويقطنها من قبائل صنهاجة لمتونة وجدالة وغيرها ، وقد تقدم وصول الفتح الإسلامي لها وهي أرض مغربية منذ ذلك الحين وحتى الاستعمار الفرنسي الذي فصلها عن المغرب وسماها \_ بدلا من اسمها شنقيط الذي يعني بالبربرية عيون الخيل \_ بالاسم الروماني القديم موريتانيا ، والذي يعني بلاد السمر ، وكان الروم يطلقونه على كافة البلاد غربي تونس ( ) .

وسوف يأتي أدوار لهذه البقعة خلال الحديث عن تاريخ المنطقة بأسرها إلا أنني لايفوتني أن أنقل هنا مبحثنا يتعلق بذلك ذكره الأديب أحمد بن الأمين الشنقيطي فقال :

شنقيط من المغرب على ما كنا نعهد ، وذلك معروف عند أهل شنقيط وأهل المغرب ، وقد أنكر ذلك بعض المشاركة ، وادعى أنها من السودان ، وذلك أن بعض الشناقطة ، كان مقيما بالمدينة المنورة ، فكان يأخذ من وقف المغاربة العمومي ، فتعصب عليه الجزائريون خاصة ، فقالوا : إن الشناقطة ليسوا من المغاربة ، فمنعوه من أخذ حصته ، فلما قدمت إلى المدينة المنورة ، سنة سبع عشرة وثلاثمائة وألف ، واجتمعت به ، أخبرني بما جرى له ، فقلت له : إن سيدي العربي بن السائح نص في كتاب البغية على أنهم من أقصى المغرب ورأيت في دار كتب المرحوم عارف حكمت بك بالمدينة المنورة ، كتابا للسيد مرتضى الزبيدي ، شارح القاموس بخط يده ، يعدد فيه أشياخه ، ويترجمهم فذكر من جملتهم : عبدالرشيد الشنقيطي ، وذكر

( ) الكامل في التاريخ ٤/١١٢ ، تاريخ ابن خلدون ٦/١١٠ ، الاستقصا ١/١٠٠ .

( ) انظر السلفية وأعلامها في موريتانيا ص ٢٢٧

( ) موريتانيا بلاد شنقيط ص ٦-٨٣ .

أنه مر عليهم بمصر متوجهاً إلى فاس ، في قضية مماثلة لقضيتك ، قال : ثم رجع إلينا ، وقد صدق له السلطان بأنهم من المغاربة، وحكم بذلك القاضي ابن سودة كما نقل أيضا عن النخبة الأزهرية أنها نصت على أن شنقيط من المغرب ( ) .

---

( ) الوسيط في أدباء شنقيط ص ٤٢٢-٤٢٤ .

## اهتمام أهل هذه البلاد وتأثرهم بالعلوم الإسلامية

\*\*\*

لاشك أن هذا المبحث بحر زاخر بالمعلومات ولا يمكن إجماله في تلك العجالة ولو حتى على سبيل الإشارة ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله وقد أفرد بعض جزئياته الباحثون بمصنفات مستقلة<sup>(١)</sup>، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بتوضيح الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها المنطقة وسوف أحاول إلقاء بعض الأضواء لكي يظهر لنا تأثير ذلك في مدرسة التفسير في المنطقة وبالله التوفيق

### المطلب الأول : تأثير الفتح الإسلامي في الحياة العلمية في المنطقة :

بالطبع كان الفتح الإسلامي للمنطقة هو المنبع الأساسي للحياة العلمية فيها وكان مركز إشعاع العلم في تلك الحقبة المبكرة بل فيما تلاها من أزمنة هو مدينة القيروان التي قال فيها صاحب المعالم : أما القيروان فهي البلد الأعظم والمصر المخصوص بالشرف الأقدم ، قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب ، وقطربهم الأوفر ، الذي أصبح لسان الدهر عن فضله يعرب ، وبشرفه يغرب ، قرارة الدين والإيمان ، والأرض المطهرة من رجس الكافرين وعبادة الأوثان ، قبلتها أول قبلة رسمت في بلاد المغرب ، وسجد الله فيها سرا وعلانية ، وناهيك بأرض كانت منازل أصحاب النبي ﷺ ومحط رحالهم<sup>(٢)</sup> .

وقال أبو إسحق الجبنياني : القيروان رأس وما سواها جسد ، ومقام برد الشبه والبدع إلا أهلها ، ولاقاتل وقتل على إحياء السنة إلا أئمتها<sup>(٣)</sup> .

وقال ابن الشباط : ولم يزل بها على الزمان من العلماء والكتاب وذوي البراعة في المعارف والآداب من تزدان بأوصافه الأقطار وتشرق بأنوار كلامه الأسطار<sup>(٤)</sup> .

ووصفها مقديش بقوله : منبع الولاية والعلوم لأهل المغرب ، أصل كل خير ، والبلاد كلها عيال عليها ، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منه علا ، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى ، كيف لا ؟ ومنها

(١) المراجع المذكورة في نهاية البحث وعلى سبيل المثال : الإباضية بالجريد لصالح بجاية ، الصراع المذهبي بإفريقية لعبد العزيز المجذوب ، القراءات بإفريقية لهند شلبي .

(٢) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ٦/١ .

(٣) مناقب أبي إسحق الجبنياني ٦٢، ٦٠ ، حسن البيان ١٨٩ .

(٤) المؤمنس ص ٢٠ .

خرجت علوم المذهب ، وإلى أتمتها كل عالم ينسب ، ولا ينكر هذا خاص ولا عام ولا يزاحمها في هذا الفضل  
أحد على طول الأمد والأيام (٤).

ولاشك أن الحياة العلمية بدأت مع أول غزوة سنة ٢٧هـ والتي اشتملت على عشرين ألفا قال أبو العرب  
: أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ (٥) والصحابة رضي الله عنهم هم المعلمون الحقيقيون والدعاة المخلصون  
الذين بلا مرء بذلوا أقصى جهدهم في نشر هذا الدين وتعليم المسلمين أمر دينهم وعن طريقهم أسلم  
الكثير من البربر نتيجة لهذه الغزوة (٦).

وقد ذكر أن عثمان رضي الله عنه أرسل مصحفا إماما إلى أهل المغرب وكان محفوظا في بيت الحكمة القيرواني (٧).  
ثم ازداد النشاط العلمي بغزوة ابن حديج سنة ٤٥هـ ، وذلك لطول مدتها التي دامت أربع سنوات مع  
ما فيها من الصحابة ، وقد أدى ذلك إلى دخول كثير من البربر في الإسلام ، ثم ترسخ ذلك كله بتأسيس  
القيروان حتى قال المالكي : فشد إليها الناس المطايا من كل مكان وعمرت بفضلاء الناس من الفقهاء  
والمحدثين والمتطوعين والعابدين والنسك والزاهدين وأعز بها الإسلام وأهله ودمغ بها أهل النفاق والأهواء  
والشك والضلالة .

ثم كانت نقطة الانطلاقة بالقيروان إنشاء جامعها الذي كان مسرحا لتدريس العلم على يد الصحابة  
والتابعين الذين قدموا مع عقبة ، ومنهم عبد الله بن عمر الذي روى عنه يزيد بن قاسط الإفريقي ، وميسرة  
الزرودي وجاء قوم إليه وهو بإفريقية فلما أرادوا فراقه قالوا : زودنا منك حديثا ننتفع به (٨) ، ولا يخفى تضلع  
ابن عمر في التفسير واهتمامه به .

وقد قام عقبة ببناء عدة مساجد بالمغرب الأقصى والأوسط ، والتي كانت بلا شك مراكز تعليمية وترك  
صاحبه شاكرا في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام (٩) ، وقد وصل عدد المساجد بالقيروان  
وغيرها في عصر ازدهارها ثلاثمائة مسجد (١٠) ، ثم جاء بعده حسان بن النعمان الذي خصص ثلاثة عشر  
فقيها من التابعين ، ليعلم البربر العربية والفقهاء ومبادئ الإسلام (١١).

(٤) انظر حسن البيان ١٨٩ . ٩

(٥) الطبقات ١٥ .

(٦) انظر النجوم الزاهرة ١/٨٥ ، تاريخ الإسلام ٢/٧٩ .

(٧) انظر رحلة العبدري ٦٥ . ٢

(٨) انظر طبقات أبي العرب ٩١ ، ٩٣ ، الرياض ١/١٣٧ .

(٩) انظر البيان المغرب ١/٢٧ . ٤

(١٠) انظر بساط العقيق ١٧ .

(١١) انظر الخلافة والخوارج ٣٨ . ٦

وثبت أن عكرمة مولى ابن عباس لم يدخل إفريقية غازيا ، وإنما دخلها لنشر العلم وكانت دروسه في الحديث والتفسير في جامع عقبة في مجلس بمؤخرة الجامع يقصده الطلاب فيه ( )<sup>٧</sup>.

ثم ماكان من موسى بن نصير حيث أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن ، وأن يفقهوهم في الدين وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيها لتعليم أهله ( )<sup>٨</sup>.

وقد بدأت الكتاتيب لتعليم النشء المسلم منذ عهد مبكر في تلك المنطقة الإسلامية الجديدة ، فعن غياث بن شبيب أنه قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان ويسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه ( )<sup>٩</sup>، وكانوا يتعلمون في تلك الكتاتيب الحديث الشريف والسنن بالإضافة لحفظ القرآن وتعلم إعرابه وترتيبه والشكل والهجاء ، والخط الحسن والدعاء والتدرب على الخطابة، وتعلم الوضوء والصلاة ( )<sup>١٠</sup>.

**المطلب الثاني : الأوضاع في المنطقة بعد الفتح الإسلامي وحتى بداية الاحتلال الفرنسي وتأثير ذلك على الناحية العلمية :**

لقد شهدت منطقة غرب إفريقية بعد الفتح الإسلامي تقلبات سياسية واجتماعية وفتنا خارجية وانتفاضات متعددة كان لها كبير الأثر في الحياة العلمية ، وسوف أتحدث عن ذلك بإيجاز .

<sup>٦</sup> **أولا : عصر الولاة ( ٩٦ هـ \_ ١٨٤ هـ ) ( )<sup>١١</sup> وقيام دولة الأدارسة الأولى في المغرب الأقصى :**

- 
- ( ) انظر طبقات أبي العرب ١٩، الرياض ١/١٤٦ .
- ( ) انظر البيان ١/٤٢ ، ٤٣ ، تاريخ ابن خلدون ١/١٣٦ .
- ( ) انظر الرياض ١/٩١ ، المعالم ١/١٥١ ، الإصابة ٢/٥٦ ، الاستيعاب ٢/٦٦ ، أسد الغابة ٢/٣٢٣ .
- ( ) انظر آداب المعلمين ١٠٢ ، ١١٢ .
- ( ) انظر أعمال الأعلام ٨-١١ ، الحلة السيرة ٢/٣٣٥-٣٤١ ، ٣٥٨-٣٦٢ ، الخلاصة النقية ١٢-٢٣ ، نهاية الأرب ٢٤/٥٣-٩٩ ، تاريخ الأمم والملوك ٤/٢٥٤ ، تاريخ المغرب العربي ١/٣٦٧-٣٧١ ، خلاصة تاريخ تونس ٦٣-٧٥ ، الاستقصا ١/١٠٠-١٣٦ ، الكامل ٤/٢٢٢-٢٢٨، ٢٢٤، ٣١/٥-٢٦، ٩٤-٨٥، ٣٣-١٠٣، ٩٦-١٠٥ ، تاريخ الرقيق ٩٣-٢٠٥ ، النجوم الزاهرة ١/٢٩٤، ٢٤٥-٢٩٥ ، فتوح مصر وأخبارها ٢١٣-٢٢٥ ، العبر ٤/١٨٨ ، ١٩٥- ، إتحاف أهل الزمان ١/٨٧-٩٢ ، المغرب الكبير ٢/٢٨٨ - ٣١٤ ، ٣٣١-٣٦٥ ، القيروان ٤٤-٥٤ ، الشجرة ٢/١٠٨-١١٢ ، تاريخ الإسلام ٥/٢٧-٣٦ ، بساط العقيق ٥٥-٥٩ ، البيان المغرب ١/٤٧-٩٠ ، حسن البيان ١٧٩-١٩٤ ، ٢١١-٢٢٠ ، معالم تاريخ المغرب ٥٧-٧٧ ، المؤنس ٣٨ .

ويطلق عصر الولاة على فترة ما بين انتهاء زمن الفتح وحتى قيام الدولة الأغلبية ، وكان حكام هذه الفترة لمنطقة المغرب والأندلس يعينون من قبل الخليفة إلى أن استقل بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١٣٧ هـ .

وامتازت بداية هذا العصر بالترابط بين العرب وإخوانهم البربر المسلمين الذين أقبلوا في شغف على تعلم الدين الجديد ، وانضموا إلى الجيش الإسلامي وحدثت بينهم المصاهرات ، وكثر بناء المساجد والكتاتيب في سائر بلاد إفريقية ، وأخذ أهل مدنها يقلدون العاصمة الإسلامية حتى في طرازها المعماري ، وانتشرت الثقافة الإسلامية بين البربر ولا غرابة في كل هذا فإن أول الولاة وهو محمد بن يزيد القرشي (٩٦ هـ - ٩٩ هـ) قد استقر في إفريقية بأحسن سيرة وأعد لها ، وكان يقسم ما يصيبه من غنائم على المسلمين من البربر والعرب على السواء<sup>(٦)</sup> .

ورحل في تلك الفترة خالد بن أبي عمران بمسائل للمسلمين الأفارقة ليسأل عنها التابعين في المشرق فدون عن سالم بن عبدالله بن عمر ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعن سليمان بن يسار كتابا كبيرا رواه أهل القيروان<sup>(٦)</sup> .

ثم قدم إسماعيل بن أبي المهاجر (٩٩ هـ - ١٠١ هـ) واليا من قبل الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، فكان خير وال لخير أمير ، وما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام فأسلم بقية البربر على يديه<sup>(٦)</sup> ، وكان زاهدا متواضعا من كبار العباد فأقبل عليه البربر المسلمون يسمعون منه حديث رسول الله ﷺ ويتعلمون ، وأرسل معه عمر بن عبد العزيز تسعة من ثقات التابعين وعلمائهم<sup>(٦)</sup> ، لتفقيه أهل إفريقية ونشر العلم في ربوعها ، وكانوا أهل علم وفضل اختط كل منهم دارا بالقيروان ، وبنى مسجدا وكتابا<sup>(٦)</sup> لتعليم البربر وأبنائهم اللغة العربية ومبادئ الإسلام ، وقد وصف كل منهم بأنه انتفع به أهل إفريقية وبث فيها علما كثيرا<sup>(٦)</sup> .

( ) انظر البيان المغرب ٤٧/١ ، المغرب الكبير ٢٨٩/٢ ، الاستقصا ١٠٠/١ ، الحضارة المغربية عبر التاريخ ص ١٠٥ .

( ) طبقات أبي العرب ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، الرياض ١٦٣/١ .

( ) تاريخ الرقيق ٩٧ ، وانظر : إتحاف أهل الزمان ٨٧/١ تاريخ آبن خلدون ٤/١٨٧ .

( ) وهم بكر بن سودة وجعثل بن عاهان وحبان بن جبلة وسعد بن مسعود وطلق بن جعبان وعبد الرحمن بن رافع وعبد الله بن المغيرة وعبد الله بن يزيد وموهب بن حي .

( ) ورقات ٨٧/١ .

( ) الرياض ١٠٠/١ ، وانظر المعالم ١٨٠/١ .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عموم البربر كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب<sup>(٦)</sup>.

وقد استقر هؤلاء التابعون بالقيروان حتى عدوا من أهلها ، فقد اعتبرهم المالكي الطبقة الأولى من علماء القيروان<sup>(٧)</sup> ، ومنهم من زادت إقامته بها على ثلاثين عاماً<sup>(٨)</sup> ، وهم في كل ذلك لا يفترون عن القيام بمهمة نشر العلم بإفريقية فكان المغاربة لذلك في صدر الإسلام على مذهب جمهور السلف من الأئمة واعتقادهم وهو المذهب الحق<sup>(٩)</sup> ، ولكن توقف هذا المد العلمي مع وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ حيث سارع يزيد بن عبد الملك بعزل إسماعيل بن أبي المهاجر وتولية يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج وصاحب شرطته<sup>(١٠)</sup> ، وكان ظلوماً غشوماً أساء السيرة في البربر ، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة متبعاً سيرة الحجاج في أهل العراق ، وكان حرسه أكثرهم منهم فوسم كل امرئ منهم على يده (حرسياً) كما تفعل ملوك النصارى فأنكروا ذلك وملوا سيرته فدب بعضهم إلى بعض وتضافروا على قتله وقالوا جعلنا بمنزلة النصارى فخرج ذات عشية لصلاة المغرب فقتلوه في مصلاه<sup>(١١)</sup>.

وتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي ثم عبدة بن عبدالرحمن السلمي فكان ههما الغزو ولم يؤثر عنهما اهتمامهما بالعلم إلا أن الثاني ظلم البربر وتعسف في معاملتهم فحنقوا عليه . ثم قدمها عبدة الله بن الحبحاب سنة ١١٦ هـ فأغزى عبدالرحمن بن حبيب ابن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري السوس وأرض السودان فظفر ظفراً لم ير أحد مثله قط وأصاب جارتين من النساء من هناك ليس للمرأة منهن إلا ثدى واحد وهم يسمون تراجان<sup>(١٢)</sup>.

وَأتم بناء جامع الزيتونة ودار الصناعة بتونس وغزا صقلية وجنوب الصحراء ، إلا أنه استجاب لمطامع رؤسائه بالمشرق فإنهم كانوا يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عمال إفريقية فيرسلون لهم البربريات السنيات فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان فاضطر إلى

(٦) فتوح البلدان ص ٢٣٣ .

(٧) الرياض ٩٩/١ .

(٨) مثل بكر بن سوادة الجذامي توفي بها سنة ١٢٨ هـ جذوة المقتبس ١٩٦ .

(٩) الاستقصا ١٣٦/١ .

(١٠) لما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة سمع أن يزيد خرج في بعض جيوش المسلمين فأمر برده وقال : لأني لأكره أن أستنصر بجيش هو منهم الاستقصاء ١٠٢/١ .

(١١) انظر فتوح البلدان ص ٢٣٣ ، البيان المغرب ٤٨/١ ، وانظر عن سوء سيرته تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٧ ، النجوم الزاهرة ١/٢٤٥ ، الاستقصا ١/١٠٢ ، ١٠٣ ، إتخاف أهل الزمان ١/٨٨ .

(١٢) فتوح البلدان ص ٢٣٣ .

التعسف وسوء السيرة<sup>(٦)</sup>، فظلم البربر المسلمين وكلفهم مالا يطيقون وتعدى<sup>٧</sup> على أموالهم وأساء عماله السيرة وخاصة عمر بن عبدالله المرادي عامل طنجة فإنه تعدى في الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين، وذلك مالم يرتكبه عامل قبله وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب إلى الإسلام فكان فعله الذميمة هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة<sup>(٨)</sup>.

واشتد استياء البربر المسلمين من هذه الأفعال القبيحة، ورأوا التناقض الصارخ بين تعاليم الإسلام وبين سلوك هؤلاء العمال، وأصبحت عندهم قابلية للتمرد في الوقت الذي فشلت فيه النزعة الخارجية في إفريقية والمغرب، ونادى أصحابها بشعارات خادعة ظاهرها فيه بعض الحق وباطنها ينطوي على شر عظيم كالمساواة بين المسلمين ووجوب الخروج على الحكام الظلمة وغيرها، فصادف ذلك هوى في نفوس البربر وتحمس كثير منهم لما نادى به دعاة الخوارج، إلا أنهم لم يعلنوا التمرد والعصيان إلا بعد أن يئسوا من إمكانية تبليغ صوتهم بالشكوى إلى الخليفة وفي ذلك يقول الطبري: فما زال بربر إفريقية من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك فلما دب إليهم دعاة العراق واستثاروهم شقوا عصاهم وفرقوا بينهم إلى اليوم، وكان من سبب تفريقهم أنهم ردوا على أهل الأهواء فقالوا: إنا لانخالف الأئمة بما تجني العمال ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك فقالوا لهم: لانقبل ذلك حتى نبورهم (أي نختبرهم) فخرج ميسرة المطغري زعيم الصفرية في بضعة عشر إنسانا حتى يقدم على هشام فطلبوا الإذن فصعب عليهم فأتوا الأبرش وزير هشام بن عبد الملك فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا ويجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال: تقدموا وأخر جنده فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الأجر ومثلكم كفى إخوانه. ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمر المؤمنين فاحتملنا ذلك، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين أنهم ذلك أم لا؟ قال: نفعل فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كان وجههم إلى إفريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية<sup>(٩)</sup>. وقد ظهرت فرقة الخوارج إثر التحكيم بين علي ومعاوية في موقعة صفين كما تذكر ذلك المصادر المعنية وقد قاتلهم علي عليه السلام فشنت الله شملهم حتى انقسموا إلى عشرين فرقة<sup>(١٠)</sup>.

(٦) البيان المغرب ١/٥٢، وانظر الخلافة والخوارج ٦٠.  
(٧) البيان المغرب ١/٥٢، وانظر تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٩، الاستقصاء ١/١٠٦.  
(٨) تاريخ الطبري ٤/٢٥٥، ٤٥٤، وانظر الكامل ٣/٤٥.  
(٩) انظر عن الخوارج في إفريقية وغيرها: الاستقصاء ١/١٠٧-١٠٨، الخلافة والخوارج ٢٠-١٣٥، الصراع المذهبي ١٩٤-١٩٧، الفرق الإسلامية ١٤٠-١٥١، الخوارج في بلاد المغرب ١٤-٩٥.

ولم يدخل المغرب من هذه الفرق إلا فرقتان الأولى الإباضية وتنسب إلى عبد الله بن إباح المري وأول من أدخلها إلى القيروان سلمة بن سعد الحضرمي<sup>(١)</sup> وعنه فشئت في قبائل المغرب ثم تم إرسال بعثة إلى البصرة بالعراق درسوا لمدة خمس سنوات على يد مسلم بن أبي كريمة زعيم الإباضية وسموا طلبة العلم وبعد رجوعهم تفرقوا في القبائل ناشرين أفكارهم . والفرقة الثانية هي الصفرية : وتنسب على الأرجح إلى زياد بن الأصفر<sup>(٢)</sup> ، وقد ذكرت بعض المصادر أن أول من أدخلها إفريقيةً عكرمة مولى ابن عباس<sup>(٣)</sup> ، وبعضها لم يذكر ذلك عنه<sup>(٤)</sup> ، والأرجح براءته من ذلك ثم تولى زعامة الصفرية بالمغرب بعد ذلك ميسرة المطغري وسوف يأتي تحرير القول في عكرمة عند ترجمته في المفسرين .

وهكذا اندلعت بإفريقية والمغرب ثورات لا نهاية لها ، ابتدأت سنة ١٢٢ هـ وهي أول ثورة في إفريقية في الإسلام<sup>(٥)</sup> وتضافرت جهود الإباضية والصفرية للإطاحة بحكومة القيروان ، وأصبح هم الخليفة بالمشرق القضاء على هذه الثورات فكان يرسل الجيش تلو الآخر ، وقد ذكروا أن هذه الحروب منذ أن استعرت إلى أن تم القضاء عليها ، في عهد يزيد بن حاتم سنة ١٥٦ هـ بلغت ٣٧٥ موقعة<sup>(٦)</sup> ذهب ضحيتها آلاف القتلى ، وقد شارك فيها العلماء مقاتلين وواعظين ، فقد استنجد حنظلة بن صفوان بمن تبقى من بعثة عمر بن عبدالعزيز لما ثارت عليه الخوارج<sup>(٧)</sup> وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين سنة تمكن الخوارج خلالها من الاستيلاء على القيروان مرتين حيث استولى عليها الصفرية سنة ١٤٠ هـ لمدة سنة وشهرين وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وقتلوا كل من كان فيها من قريش وعذبوا أهلها ثم وليها بعدهم الإباضية لمدة سنتين<sup>(٨)</sup> .

وقد تسببت هذه الحروب في تعطيل الحركة العلمية وانشغل الناس عن الطلب ، حتى قال الإمام سحنون عن هذه الفترة : كان من يحمل العلم يبقى في صدره لا يسألونه عنه فيموت به مثل عبدالرحمن بن زياد بن

(١) انظر الخوارج في بلاد المغرب ٤٦٩ ، النظم الاجتماعية ١٦ .

(٢) انظر الفرق بين الفرق ٩٠ ، دائرة المعارف ٢٢٩/١٤ .

(٣) انظر الخوارج في بلاد المغرب ٤٦١ ، التهذيب ٢٦٧/٧ .

(٤) انظر الرياض ١٤٦/١ ، طبقات أبي العرب ١٩ .

(٥) انظر البيان المغرب ٥٢/١ ، تاريخ الرقيق ١٠٩ .

(٦) ابن خلدون ١١٣/٦ .

(٧) انظر تاريخ الرقيق ١٢٠ ، الرياض ١٠٣/١ ، وقد استشهد أبو بكر قاضي القيروان وجماعة كثيرة من العلماء في قتال الصفرية سنة ١٣٩ هـ (المعالم ٢٢٩/١) .

(٨) البيان المغرب ٧٠/١ - ٧١ :

أنعم ( ت ١٦١هـ) بقي العلم في صدره لا ينشر عنه ولا يعرف (٨) ومع ذلك فقد وجد من اهتم بطلب العلم من أهل إفريقية وبرع فيه منذ هذا الوقت المبكر إلا أنهم قلائل مثل : جميل بن كريب المعافري ( ت ١٣٩ ) (٩) وزيد بن الطفيل الذي كان يرأس في هذا العهد حلقة عظيمة بجامع عقبة (١٠)، وعبدالله بن فروخ الذي رحل إلى المشرق ، وبرع في الحديث والفقه ، ثم عاد إلى القيروان فأقام بها يعلم الناس العلم ، ويحدثهم بسنة رسول الله ﷺ حتى انتفع به كثير (١١) وهو أول من أدخل مذهب أبي حنيفة المغرب حيث دون عنه أكثر من عشرة آلاف مسألة (١٢) كما أنه سمع من الإمام مالك بن أنس ، ومن سفيان الثوري والأعمش وابن جريج وهم من أعلام المفسرين .

وكان للخوارج نشاط علمي على مذهبهم ، وقاموا بكتابة العديد من المصنفات فمن أكبر علماء الإباضية محمد بن أفلح وأبو خرز الحامي ، ولهما مؤلفات عديدة في اعتقادهم (١٣)، وسوف أقدم دراسة لتفسير هود بن محكم وهو من الإباضية الذين نشروا العلم بتاهرت التي أسسوا فيها دولتهم ، كما سيأتي .

وفي أول عهد يزيد بن حاتم (١٥٥هـ \_ ١٧٠هـ) ركزت ريح الخوارج من البربر وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال (١٤) ، فالتفت إلى الناحية العمرانية ورتب أسواق القيروان ، وأفرد لكل صناعة مكانا وجدد بناء الجامع واتعشت الحياة العلمية في عهده (١٥) لطول فترة حكمه مع الهدوء والاستقرار وقلة الحروب وكذا الحال في عهد خلفه إلا ماكان من ثورة بعض الجند وخاصة في عهد محمد بن مقاتل العكي (١٨١هـ\_١٨٤هـ) الذي كان سيئ السيرة حتى إنه ضرب عابد القيروان البهلول بن راشد (ت ١٨٣هـ) وحبسه ظلماً (١٦) ، ولما اختلت عليه الأمور عزله هارون الرشيد سنة ٨٤هـ ، وبذلك انتهى عصر الولاة ليبدأ العهد الأغلبي ، كما سيأتي .

٨ ( ) طبقات أبي العرب ١٠٠ . ٧

٨ ( ) انظر : الرياض ١/١٦٨ ، المعالم ١/٢٢٤ .

٨ ( ) انظر الرياض ١/١٧٢ . ٩

٩ ( ) انظر المعالم ١/٢٣٩ ، الرياض ١/١٧٧ .

٩ ( ) الرياض ١/١٨٠ . ١

٩ ( ) انظر المدارس الكلامية بإفريقية ١٤٤ ، ١٤٦ .

٩ ( ) انظر الاستقصاء ١/١٣٣ ، العبر ٦/١١٣ .

٩ ( ) انظر تاريخ المغرب العربي ١/٣٦٦ ، وراقات ١/١٦٢ .

٩ ( ) البيان المغرب ١/٨٩ . ٥

وفي الحقبة الأخيرة من هذا العصر نشطت الرحلة إلى المشرق<sup>(٦)</sup>، وعاد الطلاب الأفارقة بعلم مالك (ت ١٧٩هـ) وكان أول من أدخله علي بن زياد حيث روى الموطأ لأهل إفريقية وفسر لهم قول مالك فأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظر لاعتماده على الحديث لا سيما على رواية أهل المدينة وهم الصفوة من الصحابة والتابعين، الذين تعود أهل إفريقية على طريقتهم في العلم والتعلم بعيدا عن المسائل الكلامية التي جرت عليهم الويلات<sup>(٧)</sup>.

ثم انتشر مذهب مالك وتسارع أهل إفريقية إلى الأخذ عنه مباشرة، حتى وصل الرواة عنه من أهل إفريقية إلى أكثر من ثلاثين تلميذا<sup>(٨)</sup>، ويعتبر الإمام مالك من أوائل الذين صنفوا في تفسير القرآن، وقد نقل ابن العربي جزءا من تفسيره في كتابه القبس<sup>(٩)</sup>، وكتب عبد الله بن فروخ إلى الإمام مالك إن بلدنا كثير البدع وأنه ألف كلاما في الرد عليهم فنهاه الامام مالك عن ذلك، خشية أن يكون ذلك سببا لإظهار طريقة الجدل بإفريقية فأراد حسم الباب<sup>(١٠)</sup>.

وكان أسد بن الفرات مع نشاطه في رواية الحديث والفقاه يلقي التفسير أيضا إذ كان يسمع الطلاب تفسير المسيب بن شريك الذي دخل به إلى إفريقية وله مجالس في ذلك<sup>(١١)</sup>.

ورحل موسى بن معاوية الصمادحي إلى المشرق، وسمع بمكة من سفيان بن عيينة صاحب التفسير المشهور، وسمع أيضا من وكيع بن الجراح بالعراق خمسة وثلاثين ألف حديث، وأخذ عنه مصنفه ورواه في القيروان وكما هو معلوم فإن وكيعا صاحب تفسير مسند ولاشك في دخول مرويات هذا التفسير أو جزء كبير منها في هذه الروايات<sup>(١٢)</sup>.

كما كان لعلي بن زياد شرف إدخال جامع سفيان الثوري الكبير وجامعه الأوسط إلى إفريقية<sup>(١٣)</sup>.

(٦) انظر كمثال: المدارك ١/١٩٢، البيان المغرب ١/٧٩، الشجرة ١/٦٠، الرياض ١/٢٣٤.

(٧) انظر الرياض ١/٢٣٤، أعلام الفكر الإسلامي ٣٨٣، موطأ ابن زياد ٣٠، ٣١.

(٨) انظر المعالم ٢/٨٣.

(٩) انظر على سبيل المثال ق ١٩٣١ مكرر.

(١٠) انظر الرياض ١/١٧٧.

(١١) الرياض ١/٢٦٥، المدارك ١/٤٧٤.

(١٢) انظر التقريب ١/٣١٢، سير أعلام النبلاء ١٢/١٠٩، الخن ٨٥، المعالم ٢/٥٢، الرياض ١/٣٧٧، فهرس ابن عطية ٦٤.

(١٣) طبقات أبي العرب ٢٥١، المدارك ٣/٣٢٦، الإكمال ١/٥٢٤.

وقد دخل في تلك الحقبة مذاهب اندثرت بعد ذلك ، وهي مذهب الأوزاعي وقد روى عنه بعض أهل القيروان<sup>(٤)</sup> ومذهب الليث بن سعد ، ومذهب سفیان الثوري وقد روى عنه كثير من أهل القيروان وسمعوها منه جامعیه الكبير والصغير ، وكان بعضهم يميل إلى رأيه<sup>(٥)</sup> ولا يخفى اشتغال الأخير بالتفسير وتصنيفه فيه وليس ثمة شك في وصول تفسيره إلى المغرب رواية عنه .

وبذلك ازدهرت الحياة العلمية من جديد ، وفشت في القيروان رواية الحديث وكثر العلماء والفقهاء ، فعن ابن غانم (ت ١٩٠ هـ) أنه انصرف يوماً من جامع القيروان بعد صلاة الجمعة فسأل بعض أصحابه : حضرت اليوم الجامع ؟ قال نعم قال كيف رأيت ؟ قال رأيت أصلحك الله به سبعين قلنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنسوة فقيه فترجع ابن غانم وقال مات الناس<sup>(٦)</sup> .

وفي تلك الحقبة فر إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي إلى مصر بعد معركة فخ ، التي دارت بين آل البيت وبين العباسيين ومعه مولاه راشد ، ثم توجه إلى المغرب ، فدخل القيروان ثم تلمسان ثم توجه إلى طنجة ، ثم رجعا إلى أوليلي سنة ١٧٢ هـ ، حيث استقبلته قبيلة أوزنة بالحفاوة والترحيب لما عرفهم بنفسه وعلى رأسها أميرها عبد الحميد الأوربي المعتزلي فبايعوا جميعاً إدريس بن عبد الله وخلع عبد الحميد طاعة بني العباس ، والتفت حوله قبائل البربر من صنهاجة وملتونة والمثمون في إقليم شنقيط وانضمت إليه قبائل زناتة وزواغة ولمايه ولواتة وسدراته وغيثه ومكناسة وغيرها ، ولما استوثق له الأمر زحف على القبائل التي لم تعترف به وعلى اليهود والنصارى والمجوس فأسلموا على يديه ثم اتجه إلى الشرق وغزا تلمسان وقبائل مغراوة فبايعته ثم عاد إلى أوليلي<sup>(٧)</sup> فدبر له الرشيد مكيدة لقتله وأرسل له سليمان بن جرير الذي تمكن من التقرب إليه وسمه<sup>(٨)</sup> .

ولم يخلف إدريس إلا جاريته كنزة وهي حامل فانتظروا ولادها فأنجبت إدريس الثاني فربوه وعلموه حتى بلغ الحادية عشرة فبويع له سنة ١٨٦ هـ وتم كل ذلك بمشورة راشد مولى إدريس الأول الذي عين وصيا على العرش وقد جاء الناس لمبايعته من مختلف أصقاع المغرب بل ومن إفريقية أيضاً<sup>(٩)</sup> .

(٤) الرياض ٢٤٧/١ .

(٥) انظر الرياض ٢٠١/١ ، طبقات أبي العرب ٥٢ ، ٢٥١ ، وراقات ٧٣/١ ، الحياة الاجتماعية ٧٢ .

(٦) المعالم ١٨٣ وانظر بساط العقيق ٥٧ .

(٧) انظر الطبري ٢٧/٥ ، الكامل ٩٠/٦ ، المختصر في أخبار البشر ١١/٢ ، زهرة الآس ص ٩ ، الولاة والقضاة ص ١٣١ ، جذوة الاقتباس ص ٨ ، أعمال الأعلام ص ١٩٠٠ ، موريتانيا بلاد شنقيط ص ٩٠ ، الدر النفيس في مناقب إدريس .

(٨) انظر العبر ١٣/٤ ، أعمال الأعلام ص ١٩٤ ، الاستبصار ص ١٩٥ ، صبح الأعشى ١٨٠/٥ .

(٩) انظر الدرر السنية ص ٨٠ .

ثانيا : عصر الدولة الأغلبية في المغرب الأدنى (١٨٤ هـ - ٢٩٦ هـ) <sup>(١)</sup> ودولتي الخوارج (المدرارية ، الرستمية ) في المغرب الأوسط ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى :

نظرا لكثرة الفتن والانفاضات في إفريقية كما تقدم ، لم تجد حكومة الخلافة بدا من أن تعهد بحكم البلاد لعائلة من عرب إفريقية تكفيهم مؤونة تلك الفتن التي طالما شغلتهم ، ويكون لها حرية التصرف داخل البلاد مع التبعية لدولة الخلافة فكان أن كلف الرشيد بهذه المهمة إبراهيم بن الأغلبن بن سالم التميمي الذي كان يتمتع بشجاعة نادرة ، وثقافة عالية بالإضافة إلى معرفته بشؤون إفريقية فإن أباه الأغلبن قد تولى حكم القيروان (١٤٨ هـ - ١٥٠ هـ) كما كان هو عاملا على الزاب .

لقد دامت الدولة الأغلبية <sup>(٢)</sup> بإفريقية مايزيد عن قرن من الزمان ، يعتبر من أزهى عصور هذه البلاد في المجال العلمي ، وفي مجال الحضارة والعمران والأمن والاستقرار وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهارا كبيرا خلا ماكان في عهد إبراهيم ابن أحمد <sup>(٣)</sup> .

واستطاعت الدولة أن تتخلص من فتن الخوارج ، حيث أسس الصفرية دولتهم (المدرارية) بسلمجاسة <sup>(٤)</sup> (١٤٠ هـ - ٢٩٦ هـ) وأسس الإباضية دولتهم (الرستمية) بتيهت الجديدة <sup>(٥)</sup> (١٦١ هـ - ٢٩٧ هـ) واهتمت كل من الدولتين بشؤونها الداخلية ومالتا إلى السلامة غالبا إذا استثنينا بعض المحاولات الفاشلة التي لم تشكل خطرا على الأغلبية <sup>(٦)</sup> .

---

(١) البيان المغرب ١/٩٠-١٣٨ ، إتخاف أهل الزمان ١/١٢٠-١١٩ ، خلاصة تاريخ تونس ٧٨-٩١ ، العبر ٤/١٩٦-٢٠٦ ، نهاية الأرب ٢٤/١٠٠-١٥٣ ، الشجرة ٢/١١٨-١١٢ ، الكامل ٥/٢٠٤-١٠٥ ، ١٤١ ، ١٨٤-١٨٦ ، ٢١٥ ، ٢٥٢ ، الخلاصة النقية ٢٤-٣٥ ، الحلة السيرة ١/٦١٣ ، ١٧٩ ، أعمال الأعلام ١٤-٤٥ ، تاريخ المغرب العربي ٢/٢٧-١٨٣ ، تاريخ الرقيق ٢١٢-٢٣٣ ، الدولة الأغلبية (كاملا) ، المجتمع التونسي على عهد الأغلبية ١٩-٢١ ، القيروان ٦٥-٨٠ ، مقدمة طبقات أبي العرب ٧-١٢ ، معالم تاريخ المغرب ٨٣-١٠٠ ، الأغلبية وسياستهم الخارجية (كاملا) .

- ١ ( ) انظر تراجم بعض رجالها في الأعلام ١/٤٩، ٣٣، ٢٨ .
- ١ ( ) انظر الرياض ١/٤١١ ، البيان المغرب ١/١٢٠، ١١٩ .
- ١ ( ) انظر البيان ١/٣١٧ ، الخوارج في بلاد المغرب ١١٢ .
- ١ ( ) انظر البيان المغرب ١/٣١٧ ، الخوارج في بلاد المغرب ١٤٤ .
- ١ ( ) الأغلبية ص ٩٩ ، ١٠١ .

وأما الوضع مع الأدارسة فكان أن وجه إبراهيم بن الأغلب إلى راشد من يقتله فلم يغن قتله شيئا وسرعان ما عين وصي آخر وهو أبو خالد يزيد ابن إلياس العبدى الذي أخذ بيعة جديدة للملك اليافع وانتشر صيته ، وقدمت عليه الوفود من إفريقية والأندلس فأجزل لهم العطاء واستوزر واستكتب منهم ثم عزم على بناء مدينة جديدة ، يقيم فيها هو وخاصته وجيشه فكان بناء مدينة فاس فبنى عدوة الأندلس سنة ١٩٢ هـ وعدوة القرويين سنة ١٩٣ هـ وبني جامع الشرفاء بعدوة القرويين وجامع الأشياخ بعدوة الأندلس (١) .

ثم تمكن إدريس من محو دعوة الخوارج وغزا بعض المناطق ، التي كانت تحت وطأة الكفار ثم توفي سنة ٢١٣ هـ (٢) .

ثم تولى محمد بن إدريس الأمر وقسم المملكة إلى ولايات وضع على رأس كل ولاية منها واحدا من إخوته واحتفظ لنفسه بفاس وحدث بينه وبين بعض إخوانه قتال انتهى بانتصاره ، وتوفي محمد بن إدريس سنة ٢٢١ هـ ، وتولى بعده ولده علي بن محمد الذي توفي بدوره سنة ٢٣٤ هـ ، وعهد لأخيه يحيى بالأمر من بعده ، فعرف بحسن السيرة والتمسك بالدين ومقاومة البدع وازدهرت الثقافة في عصره ، وقصد الناس مدينة فاس من الأندلس وإفريقية وفي أيامه بني أهم آثار فاس والمغرب الأقصى كله جامع القرويين ومسجد الأندلس سنة ٢٤٥ هـ .

ولما هلك يحيى تولى الأمر من بعده ابنه يحيى بن يحيى وقد عرف بسوء السيرة والشراب والنساء وترك الحكم بفضيحة ، تولى بعدها الأمر والد زوجته علي بن عمر بن إدريس (٣) وكان فقيها عارفا بالحديث وصارت بينه وبين الخوارج وقائع ، استولى بعدها عبد الرزاق الفهري على فاس حتى انتزعها منه يحيى بن القاسم ، ولم يزل ملكا على فاس وأعمالها حتى اغتاله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ ، وتولى الأمر يحيى بن إدريس بن عمر .

وكان يحيى بن إدريس رجلا صالحا حافظا للحديث وفي عهده اختط عبيد الله الباطني المهدي ، وهزم يحيى وفرض سلطانه على المغرب الأقصى \_ كما سيأتي \_ فكانت نهاية دولة الأدارسة الأولى (٤) .

---

(١) الملوك الأدارسة لمؤلف مجهول (مطبوع ضمن دولة الأدارسة ط ٢٩٨) وقد حدث خلاف فيمن أسس مدينة فاس ينظر له بالتفصيل دولة الأدارسة ص ٨٧ - ١٠٣ .

(٢) انظر الحلة السيرة ٥٣١ ، العبر ١٤/٤ .

(٣) انظر العبر ١٥/٤ ، أعمال الأعلام ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٤) انظر الاستقصاء ١/١٦٦ ، الدرر السنوية ص ٥٦ ، أعمال الأعلام ص ٢١٠ ، صبح الأعشى ١٨٢/٥ ، العبر ١٣٤/٦ .

وهناك نوع آخر من الثورات عرفه العهد الأغلبي ، وقد تمثل في الثورات المتتالية التي قام بها قادة الجند الذين رأوا لأنفسهم حقا في مشاطرة الأغالبة الحكم ، وكان منبت هذه الثورات في تونس غالبا وأحيانا في طرابلس وأخطرها ثورة عمران بن مجالد الربيعي سنة ١٩٤ هـ وهو قائد إبراهيم بن الأغلب ووزيره ، وقد تمكن من الاستيلاء على القيروان لمدة سنة كاملة قبل أن ينجح إبراهيم في إخماد ثورته كما ثار على زيادة الله ابن إبراهيم (٢٠١هـ-٢٢٣هـ) كبير قادته منصور بن نصر الطنبذي سنة ٢٠٩ هـ ، وتمكن من السيطرة على معظم إفريقية واستولى قادة الجيش على المدن ، ولم يتمكن زيادة الله من إعادة الأمور إلى نصابها إلا بعد أربعة أعوام (سنة ٢١٣ هـ) وأما الثورات الأخرى فلم تكن ذات بال وبذلك تمكن أمراء الأغالبة من تهديد البلاد واهتموا بالغزو الخارجي ، ففتحوا صقلية (٢١٢هـ) ومالطة وسردانية وسرقوسة (٢٦٤هـ) حتى وصلوا إلى روما<sup>(١)</sup> .

كما اعتنى الأغالبة بالناحية العمرانية فأسسوا عدة مدن كالعباسية (١٨٥هـ) ورقادة (٢٦٣هـ) ، وبنوا المحارس والحصون وقصور الرباط ومواجل المياه ، وعرفت في عهدهم المكتبات العامة ، وحبست فيها المصنفات على طلبه العلم<sup>(٢)</sup> .

وظهر مذهب الاعتزال بإفريقية بصورة واضحة في عهد الأغالبة والأدارسة والاعتزال تعود نشأته إلى الاختلاف الواقع بين واصل بن عطاء والحسن البصري حول مرتكب الكبيرة ، فاعتزل واصل مجلس الحسن وأظهر القول بأنه في منزلة بين منزلي الكفر والإيمان ودعا إلى بدعته ، وكان مبعوثه إلى إفريقية عبد الله بن الحارث الذي دخلها في بداية القرن الثاني<sup>(٣)</sup> ثم تبني الفكر الاعتزالي بعض ولاية الأغالبة ، وتمكن المعتزلة من الوصول إلى القضاء مرتين بالقيروان وامتحنوا أهل السنة في مسألة القول بخلق القرآن وكانوا يدرسون نظرياتهم في جامع عقبة وسبق تبني بعض حكام الأدارسة للفكر الاعتزالي<sup>(٤)</sup> ، وقد قاوم الشعب الإفريقي الاعتزال أشد المقاومة ، وصدرت الفتاوى عنهم والمؤلفات في الرد عليهم ، ومازال أمرهم في تناقص حتى زال كلية من إفريقية ، بعد قيام دولة بني عبيد<sup>(٥)</sup> .

- (١) ورفقات ١١٤/٢ .
- (٢) المكتبة الأثرية ص ٨ ، ١٤ ، سجل قديم ٣٣٩ .
- (٣) انظر المدارس الكلامية ص ١٦٤ ، الصراع المذهبي ص ٩٢ .
- (٤) انظر المؤنس ٥٠ .
- (٥) انظر طبقات الخشني ١٩٨-٢٢٤ ، طبقات أبي العرب ٩١ ، حسن البيان ١٩٩ ، المدارك ١١/١ .

وقد وصف عامة أمراء الأغالبة الأحد عشر ، بحسن السيرة ، والإحسان إلى الرعية<sup>(١)</sup> إلا ما كان من عبدالله بن إبراهيم (١٩٦هـ-٢٠١هـ) الذي فرض إخراج العشر من الحبوب مالا ، فسخط عليه الناس ورفضه الفقهاء ، ودعوا عليه فمات بسبب دعوتهم<sup>(٢)</sup> ويمثل عصر الاستبداد في العهد الأغلبي إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٦١هـ-٢٨٩هـ) ، فقد فسد فكره بعد مدة من حكمه ، وأتى بمنكرات لا يفعلها عاقل منها أن قتل ابنه وبناته الست عشرة وثلاثمائة من خدمه ، كما قتل كتابه وحجابه وثمانية من إخوته وله طرق بشعة في القتل كالخنق والطرح في النار أو البناء على المعاقب حتى يهلك جوعا وعطشا ، وكان يمارس القتل شهوة وبطرا ، ويعتبر عهده بداية النهاية للدولة الأغلبية خاصة بعدما أوقع ظلما بسبعمائة من رجال قلعة بلزمة ، وكانوا أولي بأس شديد في الدفاع عن الدولة وبقتلهم انفتح الطريق أمام داعي الشيعة الإسماعيلية لدخول القيروان<sup>(٣)</sup> .

وآثرت أطراف البلاد على ظلم إبراهيم<sup>(٤)</sup> في الوقت الذي بدأت تظهر فيه دعوة الشيعة الإسماعيلية بين قبائل البربر ، فأعلن إبراهيم التوبة وتخلّى عن الملك لابنه أبي العباس عبدالله (١٨٩هـ-٢٩٠هـ) الذي لم يحكم إلا سنة واحدة إذ قتله بعض خدمه فتولى بعده ابنه زيادة الله الثالث (١٩٦هـ-٢٩٠هـ) خاتمة أمراء الأغالبة ، وقد استهل عهده بقتل جميع أعمامه حتى عمه الزاهد الساكن بقصر سوسة ، كما استدعى أخاه أبا عبد الله الأحول ، الذي كان يقاتل أبا عبد الله الشيعي الذي بدأ يتقدم نحو عاصمة الأغالبة . ولما رأى زيادة الله الخطر محققا به لم يجد بدا من التودد إلى العامة والاستنصار بالعلماء ، فعزل قاضيه المعتزلي الذي اضطهد أهل السنة وأبدله بحماس بن مروان الفقيه المالكي (٢٩١هـ-٢٩٣هـ) ، وكتب إلى الناس إني عزلت عنكم الجاني الجلف المبتدع المتعسف ، ووليت القضاء حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة ، كما أرسل إلى العلماء وقال لهم : إن هذا الصنعاني الخارج علينا مع كتامة يلعن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ويزعم أن أصحاب النبي ﷺ ارتدوا بعده ، ويسمى أصحابه المؤمنين ومن يخالفه في مذهبه الكافرين ويبيح دم من خالف رأيه ، فأظهر الفقهاء لعنه والبراءة منه وحرصوا الناس على قتاله<sup>(٥)</sup> لعلمهم بما ينطوي عليه مذهبه من التعطيل والإباحية والعداوة للإسلام .

وقد بذل زيادة الله أموالا طائلة لتجهيز الجيوش التي أرسلها لمحاربة أبي عبد الله ثم عكف على شهواته ، وفي حين كان الشيعي يحتل البلاد مدينة بعد مدينة كان زيادة الله قد أقبل على اللذات واللهو ومعاشرة

(١) انظر مثلا العبر ٢٠١/٤ ، إتحاف أهل الزمان ١٠٧/١ ، ٢٠٤ ، الكامل ٥/٢٥٣ ، ٢٦٣ .

(٢) انظر العبر ١٩٧/٤ ، البيان المغرب ١/٩٦ .

(٣) انظر أعمال الأعلام ٢٧ ، العبر ٤/٢٠٤ ، تاريخ المغرب العربي ٢/١١٣ .

(٤) إتحاف أهل الزمان ١/١١٥ .

(٥) البيان المغرب ١/١٣٦ ، ١٣٧ .

المضحكين ، وأهل أمور الملك<sup>(١)</sup> ولم ينتبه من غفلته إلا على نبا سقوط مدينة الأربس<sup>٢</sup> وهي آخر معقل يحميه من الشيعة، فجمع ماخف من أمواله وهرب ليلا إلى مصر في خاصته ، وترك أهل إفريقية نبها للطمع الباطني وذلك في جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ .

أما عن الحياة العلمية فإنها شهدت في عهد الأغالبة ازدهارا كبيرا لطول عمر هذه الدولة وماشهدته من الاستقرار بالإضافة إلى أن مؤسسها قد طلب العلم في أول حياته ، وسمع من الليث بن سعد وغيره<sup>(٣)</sup> ، وكان حافظا للقرآن يلي الصلاة في الجامع الأعظم بنفسه<sup>(٤)</sup> ، فكان يعرف حق العلم وأهله أما خلفه فلم يكن لهم مثل ثقافته واهتمامه إلا أنهم كانوا يفرعون إلى العلماء عند الحاجة ويعقدون في دواوينهم مجالس المناظرة والمذاكرة<sup>(٥)</sup> ، كما كانوا يقومون بزيارة دور العباد والعلماء والكتاتيب المناسبات المختلفة<sup>(٦)</sup> ، وكان الأمراء الأغالبة يميلون إلى مذهب الحنفية لما فيه من الرخص والتسهيل لهم بالإضافة إلى أنه كان المذهب الرسمي للدولة العباسية ، وكان هذا مما أحدث نفرة شديدة بين علماء المالكية وبين الأمراء .

ولما حدثت في بغداد محنة القول بخلق القرآن دعا إليها بعض أمراء القيروان وكتبوا السجلات بذلك وقرئت على المنابر<sup>(٧)</sup> وامتحن بسببها كبار علماء القيروان مثل موسى بن معاوية الصمادحي ، وأحمد بن يزيد، وهما من جلة محدثي القيروان ، كما امتحن بسببها الإمام سحنون فاخفى ثم جيء به إلى ابن الأعلب فجمع له القواد والوزراء والقاضي ابن أبي الجواد (وهو حنفي أظهر الاعتزال ت ٢٣٤ هـ) وقال له : ماتقول في القرآن ؟ فقال سحنون أصلح الله الأمير أما شيء أبداً به من نفسي فلا ، ولكن الذي سمعت ممن تعلمت منه وأخذت ديني عنه فهم كانوا يقولون : إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق فقال ابن أبي الجواد : إنه قد كفر فاقتله ودمه في عنقي وقال مثل ذلك نصر بن حمزة القائد وغيره ، فقال لداود بن حمزة : ماتقول ياداود ؟ فقال : أصلح الله الأمير قتله بالسيف راحة له ، ولكن اقتله قتل الحياة يؤخذ عليه الحملاء ( أي الكفلاء ) وينادى عليه بسماط القيروان أن لا يفتي ولا يسمع أحداً ويلزم داره ففعل ذلك أبو جعفر وترك قول من أشار إليه بقتله وهكذا كانت محنة القول بخلق القرآن سببا في اختفاء كثير من علماء القيروان ، ومنعهم من التدريس والإفتاء<sup>(٨)</sup> .

(١) العبر ٢٠٥/٤ ، وانظر البيان المغرب ١/١٤٣ ، الكامل ٦/١٤٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/١٢٩ ، وانظر : شهورات ٣٨ ، ورفقات ١٣/٨٣ .

(٣) إتخاف أهل الزمان ١/٦٠٤ .

(٤) انظر الرياض ١/٤٨٩ ، ٤٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٧٦ ، طبقات أبي العرب ٨٨ ، طبقات الحشني ٢٣٧ .

(٥) انظر الرياض ١/٤١١ .

(٦) انظر المحن ٤٥٤ ، الحلل ٣/٧٩٣ ، المدارك ٣/٢٢٢ .

(٧) (المحن ٤٥٦ .

وكان أكثر أمراء الأغلبة يميلون إلى تعيين القضاة الحنفية ، وهؤلاء غالباً ما ينكرون بالعلماء المدنيين مثل محمد بن عبدون الذي امتحن على يديه جماعة من الفقهاء المالكية وأهل السنة ، وضرهم ونكل ببعضهم وأطلقهم وأغرى الأمير ببعضهم فقتل منهم (١) .

وفي المقابل كان علماء المالكية يرفضون كل عرض وظيفي من الأمراء متأسين في ذلك بما فعله الإمام مالك من البعد عن السلطان توقيراً للعلم ورفعاً لشأنه ، ومن قبل منهم القضاء إنما قبله بعد أن أدير عليه مدة طويلة ، وبعد أن اشترط شروطاً استوثق معها قيامه بالعدل ، كما فعل الإمام سحنون ، وعيسى بن مسكين وغيرهما (٢) .

وانتشرت المكتبات الخاصة ومنها مكتبة سحنون ، وكانت تحتوي على كتب عظيمة منها : جميع كتب عبد الله بن وهب وهو راوية للتفسير عن الإمام مالك وكان عنده سماعات عن سفيان بن عيينة ، وهو من أئمة التفسير (٣) ، ومكتبة محمد ابن سحنون الذي بلغت مصنفاته مائتي كتاب في جميع العلوم ومنها علوم القرآن (٤) .

كما أنه كان هناك بيت الحكمة القيرواني الذي كان يرأسه إبراهيم بن أحمد الشيباني ت ٢٩٨ هـ ، وهو صاحب مسند في الحديث وله كتاب سراج الهدى في القرآن ومشكله وإعراجه ومعانيه ، ومصنفات أخرى في الأدب (٥) وتأني ترجمته إن شاء الله تعالى ، وكثرت في ذلك الوقت قصور الرباط التي بدأ إنشاؤها بقصر المنستير على يد هرثة بن أعين سنة ١٨٠ هـ ، وكانت مع مهمتها الجهادية مراكز تعليمية هامة (٦) . كما تولى قضاء صقلية أحد تلامذة سحنون ، وهو سليمان بن سالم المحدث الفقيه المفسر وبث فيها علماً كثيراً ، ونشر مذهب الإمام مالك فيها (٧) .

(١) المدارك ٢٣٣/٣ . ٢

(٢) انظر مثلاً : المعالم ٨٤/٢ ، المدارك ٢١٤/٣ . ٣

(٣) انظر مناقب أبي إسحق الجبّني ١١ . ٣

(٤) انظر الرياض ٤٤٣/١ ، الذبيح ٢٣٤ . ٤

(٥) البيان المغرب ١٣٤/١ . ٤

(٦) انظر البيان المغرب ٨٩/١ ، المعالم ١٩٦/٢ ، وراق ٩١/٢ ، الفرق الإسلامية ص ١٠٠ . ١

(٧) انظر طبقات الخشني ٣١٤٧ ، المعالم ٢٠٦/٢ ، الحلل السندئية ٧٧٥/٣ ، الشجرة ٧١/١ . ١

وتكثفت رحلة الأندلسيين إلى إفريقية ومنهم : بقي بن مخلد صاحب التفسير والمسند اللذين لانظير لهما ، وقد سمع من كبار محدثي المشرق ، كالإمام أحمد وابن معين ولا شك أنه قد استفاد من مرويات الإمام أحمد في تفسيره (١) .

وكانت منازل العلماء من المراكز العلمية التي ساهمت في نشر العلم ، فكان للإمام سحنون حلقة عظيمة في داره ، وكان لمحمد بن يحيى بن سلام المفسر مثلها ، وكان عيسى بن مسكين يحدث بكتب ابن وهب في منزله (٢) .

ورحل يوسف بن يحيى المغامي القرطبي نزيل القيروان إلى اليمن وسمع بها من إسحق بن إبراهيم الدبري صاحب عبد الرزاق وراوي مصنفه ومعلوم أن عبد الرزاق له تفسير مسند ولا يستبعد أن يكون يوسف سمعه أيضا من إسحق (٣) .

وأیضا رحل محمد بن عبد الله الأنصاري ابن أبي منظور قاضي قيروان إلى صنعاء ، فسمع بها من الدبري مصنف عبد الرزاق (٤) .

وقد حدث سحنون بكتب ابن وهب كلها في قصر زياد ، عندما خرج إليه فرارا من محنة القول بخلق القرآن (٥) .

فلم يكن الازدهار العلمي في تلك الفترة إذن ناتجا عن تشجيع من الأمراء الأغالبة إنما كان سببه حرص العلماء ومقدرتهم على الاستفادة من الظروف المتاحة لهم لنشر العلم ، ونحن إذا استثنينا مسألة القول بخلق القرآن نجد أن حكومة القيروان لم تكن تتدخل في الناحية العلمية بدليل أن حلقات الإباضية والصفيرية والمعتزلة كانت تعقد في جامع عقبة لمدة نصف قرن في العهد الأغلبي حتى جاء الإمام سحنون فشردهم (٦) ، وفي عهد الأغالبة استقر المذهب المالكي والحنفي ، ونشطت الحياة المسجدية وكثر العلماء وتكثفت الرحلة إلى المشرق ، وأقبل أهل إفريقية على التصنيف فصنف يحيى بن سلام (ت ٢٠٠هـ) تفسيره وجامعه في الحديث ، ورتب الإمام سحنون المدونة وذيل مسائلها بالأحاديث ، وصنف محمد بن سحنون شرحا على

(١) انظر تاريخ ابن الفرضي ١٠٧/١ ، جذوة المقتبس ١٦٧ ، طبقات المفسرين للسيوطي ٤٠ ، سير أعلام النبلاء ٢٨٥/١٣ ، الصلة ١١٦/١ .

(٢) انظر الرياض ٣٦٥/١ ، المدارك ٣٣٥/٣ ، المكتبة الأثرية ٣٤٤ .

(٣) انظر الديباج ٣٥٦ ، الشجرة ٧٦/١ ، الأنساب ٤١٨/١١ ، تاريخ ابن الفرضي ٢٠١/٢ .

(٤) انظر طبقات الحشني ١٧٣ ، الرياض ٣٥٧/٢ ، المدارك ٣٣٩/٣ ، تكملة الصلة ٣٦٣/١ .

(٥) الرياض ٤٢٦/١ .

(٦) انظر : المؤنس ٥٠ ، وقات ٧٣/١ .

الموطأ ومسندا في الحديث وغير ذلك ، وصنف العلماء كثيرا من المصنفات في الرد على المعتزلة مثل كتاب الحجة على القدرية لمحمد بن سحنون وكتاب الاستواء لسعيد بن الحداد وغيرها كما امتلأت الحصون والمحارس بالعلماء ، والعباد المرابطين ، فقد بنى الأغلبية أكثر من ثلاثين ألف معقل (١) .

وقد كان موقع القيروان وبلاد المغرب في منطقة واصله بين بلاد المشرق وبين بلاد الأندلس وهذا أدى إلى الاستفادة من العلماء الذين انطلقوا بين المنطقتين لنشر العلم والدعوة إلى الله ويتضح ذلك جليا في مجال التفسير فيما يأتي من موضوعات هذا البحث ، وبهذا تكاملت جوانب الحياة العلمية بإفريقية وأصبحت قادرة على مواجهة الخطر الباطني الذي حل بساحتها بعد ذلك كما سيأتي .

ثالثا : عصر الشيعة الإسماعيلية (٢٩٦-٣٦٢هـ) (٢) ، وقيام دولة الأدارسة الثانية في المغرب الأقصى:

ينتمي العبيديون (٣) إلى الطائفة الإسماعيلية من الرافضة ، وهم القائلون بإمامة إسماعيل بعد أبيه جعفر الصادق رغم اتفاق أهل التاريخ على وفاة إسماعيل في حياة أبيه ، ويعتبرون أن عبيد الله صاحب إفريقية رابع أئمتهم المستورين (٤) .

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٨٨/١٣ .

(٢) انظر : البيان المغرب ١/١٢٤-٢١٥٢١-٢٢٨ ، حسن البيان ٢٢٩-٢٣٣ ، المغرب الكبير ٢/٥٩٣-٦٣٧ ، تاريخ عجائب الآثار ١/٢٦ ، الكامل في التاريخ ٦/١٢٧-١٣٥ ، ٦/١٥١ ، ١٦٠ ، ١٩٠ ، ٢٣٨ ، ٣٠٥ ، ٣١١ ، المؤنس ٥٤-٦٥ ، الشجرة ٢/١٢٢-١٢٣ ، معالم تاريخ المغرب ١١٩-١٣٦ ، القيروان ٨٣-٩٧ ، تاريخ المغرب العربي ٢/٥٣٥ ، ٥٧٧ ، أعلام ابن عاشور ٣٩-٤٤ ، الاستقصا ١/٦٠ ، الرياض ٢/٤١-٤٥ ، ٢/٨٧-٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧-٢٩٩ ، ٣٣٨-٣٣٩ ، الفرق الإسلامية ٢٠٠-٢٠١ ، الصراع المذهبي ١٦٧-١٩٣ ، ٢٠٣-٢١١ ، أعمال الأعلام ٤٦-٦٥ ، الحلة السيرة ١/١٩٠-١٩٦ ، ٢/٣٨٧-٣٩٣ ، الخلاصة النقية ٣٥-٤٢ ، النجوم الزاهرة ٣/١٦٨-١٧٧ ، الإباضية بالجريد ١٢٠ ، ١٢٣-١٢٥ ، المدارك ١/٣١٨-٣٢١ ، طبقات الخشني ٢١٥ ، ٢٢٥-٢٢٦ ، رسالة افتتاح الدعوة ٦٢-٢٧٤ ، الفكر السامي ٢/١٤٨ ، رحلة التجاني ٢٦٦ ، العبر ٤/٢٨-٤٩ ، البداية والنهاية ١١/١٧٩ . ٣٤٥ ، مقدمة ابن خلدون ٢١-٢٣ ، تعاضد الخفاء ٥٥-١٠١ ، المغرب العربي ١٦٦-١٧٤ ، مرحلة التشيع في المغرب العربي ١٧-٥٨ .

(٣) نسبة إلى عبيد الله الذي لقب نفسه بالمهدي ، أول ملوك الرافضة بإفريقية .

(٤) انظر العبر ٤/٣٠ .

ويلقبون بالباطنية<sup>(١)</sup> والرافضة ويسمون الملاحدة ، لما في مقالاتهم من الإلحاد ، كما سمو بالمشاركة لقدومهم من المشرق<sup>(٢)</sup> وينتسب عبيد الله أول ملوك هذه الطائفة إلى آل البيت زورا وبهتانا ، فالصحيح أنه دعي في نسبه ، وأنه من ولد عبد الله بن ميمون القداح<sup>(٣)</sup> ، وقد كانت هذه الحقيقة شائعة في أول أمرهم بإفريقية ومصر والحرمين<sup>(٤)</sup> بما لا يدع مجالاً للشك واللبس .

أما عن دعوتهم في المغرب فإنه لما وقعت مطاردة الروافض في المشرق أخذوا ييثون دعوتهم في الأمصار البعيدة عن يد الخلافة ، فكلفوا بأمر المغرب أحد دعاةهم المسمى أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء الصنعائي ، وقد تعلم طرق الدعوة في اليمن ثم اتصل بحجيج كتامة<sup>(٥)</sup> ، فخدعهم بالحديث عن حب آل البيت حتى ألحوا عليه في مصابحتهم إلى بلادهم ، فأظهر التمتع أولاً ثم وافقهم بعد أن علم من أوضاع بلادهم ما شجعه وفي كتامة<sup>(٦)</sup> أظهر دعوته والتف الناس حوله ، ووقعت بسببه فتن كاد يهلك فيها ، ثم قوي أمره وقصدته قبائل البربر من كل فج ، فبدأ يحتل بلاد المغرب بلدا بلدا ، وفي أثناء ذلك دخل عبيد الله المغرب متخفياً وعيون الخلافة تلاحقه حتى سجن في سجلماسة ، وبعد حروب دامت أكثر من خمس سنوات تمكن أبو عبد الله من طرد الأغالبة ، ودخل القيروان سنة ٢٩٦هـ ثم أخرج عبيد الله من سجنه بسجلماسة ، ودخلا معا عاصمة إفريقية سنة ٢٩٧هـ ، بعد أن استطاعا القضاء على الدولة الرستمية الإباضية في المغرب الأوسط سنة ٢٩٦هـ<sup>(٧)</sup> ، واستطاع الباطنيون القضاء على دولة الأدارسة الأولى تماما في حدود سنة ٣١٩هـ<sup>(٨)</sup> ، والقضاء على الدولة المدراية الصفرية سنة ٣٤٩هـ<sup>(٩)</sup> .

(١) الفرق بين الفرق ٦٣ . ٤  
(٢) رسالة افتتاح الدعوة ٩٣ . ٥  
(٣) أحد كبار مؤسسي الفكر الباطني ، انظر: الفرق بين الفرق ٢٤ . ١  
(٤) انظر : الكامل في التاريخ ٢٦٣/٧ ، البيان المغرب ٢٨٢/١ ، وراجع عن بيان كذبهم في الانتساب إلى آل البيت : المنار المنيف ١٥٣ ، سير أعلام النبلاء ١٨٤/٥ ، الإعلان بالتويخ ٨ ، البداية والنهاية ١١/١٧٩ ، النجوم الزاهرة ٤/٧٥ ، وصنف أبو بكر الباقلاني كتابا سماه ل كشف الأسرار وهتك الأستار □ فضح فيه ادعاءهم ، كما ألف في ذلك بعض الشيعة المعاصرين لهم ، انظر اتعاظ الخنفاء ٢٢ .  
(٥) كتامة : من أكبر قبائل البربر في المغرب ، وعليهم قامت دعوة الرافضة فيه ، انظر : الشجرة ٢/١٠٥ ، البيان المغرب ١٢٤/١ .

(٦) انظر : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية . ١  
(٧) في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧٦ . ١  
(٨) انظر دولة الأدارسة ص ١٥٣ - ١٥٤ . ١  
(٩) في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧٧ . ١

وبدأ عهد الاضطهاد الذي عاشه أهل السنة تحت الاحتلال العبيدي ، وقد استمر حكم الإسماعيلية بإفريقية والمغرب ستا وثمانين سنة كرسوا فيها كل جهودهم لإماتة السنة ونشر البدع ، ومنع العلم ، مستعملين في سبيل ذلك أحسن الوسائل فتعرض الناس في عهدهم لظلم عظيم وضيق شديد ، وكان علماء السنة من قراء ومحدثين وفقهاء لهم بالمرصاد ، جاء في المعالم : جرى الله مشيخة القيروان خيرا ، هذا يموت ، وهذا يضرب ، وهذا يسجن ، وهم صابرون لا يفرون ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة (١) .

ورغم سيطرة العبيديين العسكرية على جميع أنحاء المغرب وصقلية وحوض البحر الأبيض المتوسط فإنهم لم يحسوا بالأمن والاستقرار ، ولم تكن الثورات الكثيرة التي شهدتها عهدهم (٢) هي السبب الأكبر في قلقهم ، وإنما مثار قلقهم هم هؤلاء العلماء المؤمنون ، ومن هنا راح الروافض يقومون بأعمال منكرة لنشر أباطيلهم وحمل الناس على اعتناق مذهبهم ، إلا أنها لم تزد أهل السنة منهم إلا نفورا ، وكان عهدهم من أضيح العهود وأشدها على الناس لتبديدهم الأموال بإعطائها اليهود والنصارى وانفاقها في الخمر والملاذات (٣) .

ويمكن أن نلخص في النقاط التالية جرائمهم في حق الإسلام عامة ، وفي حق العلم وأهله بصفة خاصة :  
 ١ - لقد ادعى عبيد الله الرسالة ، فإنه لما وصل إلى رقادة ، طلب فقيهين من فقهاء القيروان ، فدخلا عليه وهو جالس على كرسي ملكه فقال لهما بعض دعائه : اشهدا أن هذا رسول الله فقلالا بلفظ واحد : لو جاء هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان : إنه رسول الله ماقلنا ذلك ! فأمر بذبحهما (٤) بل لقد غلا فيه أصحابه حتى أهووه فقد كانت أيمانهم : وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة ، وكان بعضهم يتصدى لعبيد الله ويقول له : ارق إلى السماء لم تقيم في الأرض وتمشي في الأسواق ، كما أن أميرهم الرابع معد بن إسماعيل ادعى النبوة وجعل من نادى فوق صومعة القيروان : أشهد أن معد بن إسماعيل رسول الله فارتج البلد لذلك (٥) .

٢ - لقد مدح حكاهم بأنواع من الكفر وأقروها ، منها قول أحد شعرائهم في عبيد الله :

حل برقادة المسيح      حل بها آدم ونوح  
 حل بها الله ذو المعالي      فكل شيء سواه ربح

(١) المعالم ٢/٢٩٢ .  
 (٢) من أخطر هذه الثورات ثورة داعية أبي عبد الله الذي شكك في إمامة عبيد الله ، فقتله سنة ٢٩٨ هـ انظر النجوم الزاهرة ١/١٥٤ ، وثورة أبي يزيد الخارجي الذي استولى على كامل بلاد إفريقية حتى لم يبق للعبيديين إلا المهديّة انظر العبر ٤٠/٤-٤٤ .

(٣) انظر المدارك ٣/٧١٤ ، طبقات الخشني ١٦٨ .  
 (٤) سير أعلام النبلاء ١٤/٣١٦ ، الرياض ٢/٤٩ .  
 (٥) البيان المغرب ١/٢٨٥، ٣٨٢، ١٨٦، ١٦٠ .

وقول الآخر في المعز :

ما شئت لاما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار<sup>(١)</sup>

٣\_ أظهروا سب الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وطعنوا فيهم ، وزعموا أنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ وخصصوا دعاة للنداء بذلك في الأسواق ، وعلقوا رؤوس الأكباش ، والحمير على أبواب الحوانيت ، وكتبوا عليها أسماء الصحابة<sup>(٢)</sup> ، وكان من ذكر الصحابة بخير أو فضل بعضهم على عليّ قتل أو سجن<sup>(٣)</sup> فلم يكن أحد يذكرهم بالثناء إلا في دور العلماء<sup>(٤)</sup> .

٤\_ زادوا في الأذان حي على خير العمل ، وأسقطوا في أذان الفجر : الصلاة خير من النوم ، ومنعوا الناس من قيام رمضان ، وليس شيء أشد على بني عبيد من هذه الصلاة ، وقدموا صلاة الظهر قبل الزوال وأمروا بصلاة العصر في وقت الظهر لفتنة الناس<sup>(٥)</sup> ، أما خطبة الجمعة فقد أظهروا فيها سب الصحابة وضربوا من الكفر ، فتركها الناس وأقفرت المساجد في زمانهم ، وكان بعض أئمتهم يصلون إلى رقادة فلما انتقل

عبيد الله إلى المهديّة صلوا إليها<sup>(٦)</sup> وكثيرا ما يجرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال<sup>(٧)</sup> .

٥\_ دعوا إلى الإباحية ، وتعطيل الشرائع ، وإسقاط الفرائض عن تبع دعوتهم<sup>(٨)</sup> ، وكانوا يرسلون دعواتهم إلى الأطراف لإظهار ذلك ، فإن وجدوا الناس مغضين عنه أشاعوه حتى كان الرجل يأتي حليلة جاره وهو ينظر ، فإن قبل ذلك عد عندهم من الصابرين<sup>(٩)</sup> .

٦\_ أجبروا الناس على الدخول في دعوتهم فمن أجاب تركوه وربما ولوه بعض المناصب ، ومن رفض قتل ، كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها عبيد الله بالقيروان ثم لما أكثر دعواتهم على أهل القيروان وقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة فأمر الشيعي بالكف عن العوام<sup>(١٠)</sup> وطلب العلماء لتشريقهم أي إدخالهم في

(١) انظر : الكامل ٤٦/٧ ، في تاريخ المغرب والأندلس ص ٦١٨ .

(٢) المدارك ٣/٣١٨ ، الرياض ٣/٤٢٤ ، ٣٣٨ .

(٣) المعالم ٣/٣٥ ، المحن ٢٧٩ :

(٤) المدارك ٣/٣٧٨ .

(٥) مناقب أبي إسحاق ٦٥ . ٢ .

(٦) انظر رحلة التجاني ٢٦٦ ، المدارك ٣/٣٣٨ ، المعالم ٥/٣ ، البيان المغرب ١/١٨٦ ، المحن ٢٨٧ ، الرياض ٢/٤٢ .

(٧) انظر المعالم ٣/٤٩ . ٤ .

(٨) الرياض ٢/٥٠٤ . ٥ .

(٩) انظر البيان المغرب ١/٦٨٥ .

(١٠) انظر الكامل ٦/١٣٥ ، ٣٣٣ .

دعوتهم<sup>(١)</sup> وافتعل مناظرات صورية<sup>٢</sup> ، فدارت على علماء السنة مقتلة عظيمة ، وقتل منهم<sup>٣</sup> عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ومنافحتهم عن السنة قال القاسبي : إن الذين ماتوا في دار البحر (سجن العبيدين) بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ، ما بين عالم وعابد ورجل صالح<sup>(٤)</sup> هذا عدا ما كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان ، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية ، وقد خمل ذكر كثير من العلماء الذين آثروا اعتزال الفتنة ، مثل أبي محمد الورداني<sup>(٥)</sup> ، ومع ذلك فإن هذه الشدة لم تزد أهل إفريقية إلا تمسكا بسنتيهم .

٧\_ منعوا العلماء من التدريس في المساجد ، ونشر العلم ، والاجتماع بالطلبة ، وحبسهم في بيوتهم فكان من يأخذ عنهم ويتذاكر معهم إنما يكون سرا ، وعلى حال خوف وريبة<sup>(٦)</sup> ، فكان الموطأ وغيره من كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت<sup>(٧)</sup> وكانت السنة تعرض بالقيروان سرا<sup>(٨)</sup> ، وكان أبو محمد بن أبي زيد ، وأبو محمد بن التبان ، وغيرهما يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد ، شيخ السنة بالقيروان ، في خفية ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفا من بني عبيد<sup>(٩)</sup> ، وكان بعض العلماء يخرج إلى المقبرة فيستر فيها ويقرأ على الطلبة للخوف من بني عبيد ، لأنهم منعوا من بث العلم ، وسجنوا العلماء في دورهم<sup>(١٠)</sup> .

وبذلك خلت المساجد من حلق الذكر ومجالس العلم ، وأصبحت هذه المهمة تقع في دور العلماء ، وبعض قصور الرباط خفية وفي مقابل ذلك فسح العبيديون لدعاتهم المجال لنشر ضلالاتهم ومكنوهم من كل الوسائل في سبيل القضاء على الإسلام والسنة .

٨\_ حرموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك ، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحيانا ، ويدار بالمقتول في الأسواق وينادى عليه هذا جزاء من يذهب مذهب مالك<sup>(١١)</sup> ، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن تشرق وكفر<sup>(١٢)</sup> .

(١) انظر المعالم ٩١/٣ ، المدارك ٥٢١/٣ ، طبقات الخشني ٢٢٥ .

(٢) المعالم ٣٤/٣ ، وانظر الرياض ٣٢٦/٢ .

(٣) انظر المدارك ٤١٦/٤ .

(٤) المدارك ١٢١/٥ ، الفكر السامي ١٤٨/٢ .

(٥) انظر طبقات الخشني ٢١٩٥ .

(٦) انظر : تاريخ ابن الفرضي ١٥٣ ، ٢٠٢ .

(٧) انظر المعالم ٢٥/٣ .

(٨) المعالم ٣٩/٣ .

(٩) إنباه الرواة ٥٤/٢ ، وانظر الرياض ٤١ ، ٢٦٥/٢ ، البيان المغرب ١٥٩/١ .

(١٠) الرياض ٥٦/٢ .

٩\_ قاموا بمصادرة مصنفات أهل السنة وإتلافها ، ومنع الناس من تداولها ، من ذلك أن أبا محمد عبد الله بن أبي هاشم التجيبي (ت ٣٤٦) توفي وترك سبعة قناطير كتب كلها بخط يده ، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها ، ومنع الناس منها كيذا للإسلام وبغضا فيه (١) وقد وجد موطأ الإمام مالك عند رجل فضربوه وطافوا به (٢) ، ورفعت إلى السلطان أشياء على سعدون الخولاني (ت ٣٢٤هـ) المتعبد بقصر الطوب فأرسل إليه بعض حرسه فقيدوه وجمعوا ما في بيته من الكتب وأخذوه إلى عبيد الله (٣) .

١٠\_ منعوا التجمعات ، فقد رفع على بعض العلماء العباد أنه يجتمع إليه العامة، ويدور بهم على قصور الرباط فمنعواهم خشية الخروج عليهم ، وكانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء (٤) كما أنهم منعوا الجولان بالليل ، ولهم بوق يضربونه أول الليل فمن وجد بعده ضرب عنقه (٥) .

١١- حرص العبيديون على محو آثار من سبقهم ولذلك أمر عبيد الله بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد وأن يكتب اسمه بدلها كما استولى على أموال الأحماس وسلاح الحصون ، وطرده العباد والمرابطين بقصر زياد وجعله مخزنا للسلاح (٦) .

وهكذا يتبين بكل وضوح حرص العبيديين على مصادرة الفكر السني ، وتعطيل شرائع الإسلام ، وإماتة العلم الصحيح واضطهاد أهله ، ولكن أمام ذلك كله تضامن علماء أهل السنة وعبادهم ومتصوفوهم (٧) ، وتضافرت جهودهم لرد كيد العبيديين ، وإخراجهم من أرض إفريقية ، ومنعهم من أن ينالوا حصن السنة بالمغرب ، والتف الشعب حول هؤلاء العلماء العاملين ، الذين عرفوا بتضحياتهم المثالية في سبيل الحق ، وتمسكهم بالسنة ، وأصبحوا هم القادة الحقيقيين لشعوبهم فأمرؤا بمقاطعة جميع المؤسسات الحكومية فلا يختصمون إلى قضاتهم ، ولا يصلون وراء أئمتهم ، ولا يأتون معزين ولا مهنتين ، ولا يناكحونهم ، ولا يتوارثون معهم ، ولا يصلون على موتاهم .

---

(١) (الرياض ٤٢٣/٢ ، وانظر المدارك ٣/٣٤١ .

(٢) (انظر الفكر السامي ٧١/٢ .

(٣) (انظر الرياض ٢٥٩/٢ .

(٤) (انظر المدارك ٣/٣٨٩ ، الرياض ٢/٢٥٨ .

(٥) (انظر المدارك ٣/٣٨٤ .

(٦) (انظر الرياض ٢/٢٢٢، ٢٥٦ ، موقف متصوفة إفريقية ١٩ .

(٧) (لقد امتاز متصوفة ذلك الوقت - بخلاف الفترات الزمانية التالية - بالمغرب عن غيرهم بالتزامهم بالسنة وبعدهم عن الغلو والتطرف والزيغ انظر: متصوفة إفريقية ٧ .

وقد كان بعض العلماء يغتسل يوم الجمعة ، ويلبس ثيابه ويتطيب ، ويخرج إلى الجامع حتى إذا وصله يرفع عينيه إلى السماء ويقول : اللهم اشهد ، ويرجع إلى داره ( ٩ ) .

كما أفتى العلماء بكفر بني عبيد ، وأنهم ليسوا من أهل القبلة ، كما كفروا من دخل دعوتهم راضيا ، ومن خطب لهم ولم يعذروا المكروه وقالوا: يختار القتل ولا يدخل دعوتهم ( ٩ ) وقد شاعت هذه الفتاوى وعرفها الخاص والعام ، فكانت حاجزا منيعا بين العوام وبين الترددي في دعوة الرافضة .

وَدأب علماء السنة على تعرية العبيديين وفضح معتقداتهم الباطلة حتى يحذرهم العامة قال أبو إسحاق السبائي (ت ٣٥٦هـ) لأصحابه : افتحوا باب داري نأخذ في ذمهم والتحذير منهم وكان مما ملأ به مجالسه : الإكثار من ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم ( ٩ ) .

ولم يتخل العلماء عن التدريس في هذه الفترة الحرجة ، فلما منعوا من التحديث والإقراء في المساجد فتحو بيوتهم للطلبة فقصدوهم للتلقي ، حتى إن دار إسحاق السبائي كانت كالمسجد ( ٨ ) لكثرة من يؤمه من الطلبة ، وكان أحمد بن يزيد الدباغ يسمع في داره ( ٩ ) ، كما كان تلاميذ أحمد بن نصر الهواري يقصدونه في بيته بعد أن منع من التدريس في مسجد رحبة القرشيين ( ٩ ) .

ووصل الأمر إلى التحيل في تعليم أطفالهم حتى يتربوا على السنة ، وذلك مقام به أبو إسحاق الجبنياني وغيره ، فإنه كان يعلم أولاد الكتاميين (حملة الدعوة العبيدية ) ولا يأخذ منهم أجرا فيعلمهم القرآن والسنة ولا يعلمهم يكتبون ، ويقول : ليس يضررون الناس بالقرآن وإنما يضرورهم بالأقلام ( ٩ ) .

كما قاوم علماء السنة الرافضة بطريقة الجدل والمناظرة ، وقد أفحموا فيها دعاة بني عبيد ، وأقاموا عليهم الحجة ، ودحضوا مزاعمهم بالبراهين القاطعة ، فحفظوا للسنة مكانها وللإسلام عزه ، ومن هؤلاء : أبو بكر القمودي الذي ناظر أبا العباس الشيعي مناظرة أفحمه فيها ( ٩ ) وإبراهيم ابن محمد الضبي ( ٩ ) ، وأبو

١ ( ) المدارك ٣/٣، ٥٢٦، ٧١٩/٥، الرياض ٢/٤٣ .

١ ( ) انظر في هذه الفتاوى : المدارك ٣/٧٦٧، ٧٢٠، ٧١٩، المعالم ٣/١٧٧، الرياض ٢/٣٣٩ .

١ ( ) انظر : المدارك ٣/٣٧٨ .

١ ( ) المعالم ٣/٦٦ .

١ ( ) الرياض ٢/٢٧٢ .

٢ ( ) المعالم ٣/٦ .

٢ ( ) مناقب أبي إسحاق ٢٦ ، المدارك ٣/٥١٦ .

٢ ( ) انظر طبقات الخشني ٢١٤ .

٢ ( ) انظر الرياض ٢/٤٦ .

محمد عبدالله بن التبان (١) إلا أن أقدروهم على ذلك وأشهرهم به : أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحداد المفسر فقد كانت له مع بني عبيد مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الإسلام والذب عن السنة (٢).

ووصل الأمر إلى المواجهة المسلحة فإنه لما نزل عبيد الله بقرادة ترك جبلة بن حمود الصديفي (ت ٢٩٧) الرباط في قصر الطوب ونزل لقرادة وقال : كنا نحرس عدواً بيننا وبين البحر ، فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم ، فكان يجلس طول اليوم محاذياً لقرادة ومعه سلاحه وكان يقول : أحرس عورات المسلمين من هؤلاء القوم فإن رأيت منهم شيئاً حركت المسلمين عليهم (٣) ولكن جبلة لم يعيش في حكم العبيديين إلا سنة واحدة .

وفي بداية الحكم العبيدي بايع أهل القيروان وكثير من قبائل أفريقية أبا عبد الله السدي على جهاد بني عبيد إلا أن خبره بلغ عبيد الله ، فخرج إلى مكة فلما عاد قبضوا عليه وقربوه للقتل ، وكان على درجة عظيمة من العبادة والتقوى فهرب العسكر كله فلم يجدوا أحداً يقتله ، فأخذوا رومياً سقوه خمرًا حتى سكر فقتله ثم صلبوه (٤) ، لعنهم الله تعالى وكان قتله سنة ٣٠٩ هـ .

فلما ثار أبو يزيد محمد بن كيداد الخارجي (٥) واشتد أمره سنة ٣٣٢ هـ ، واستولى على القيروان رأى العلماء أن الخروج معه واجب لأنه من أهل القبلة أما الرافضة فهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام وقالوا : إن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد والله يسلط عليه إماماً عادلاً يخرجنا عنا (٦) ، وخرجوا

(١) انظر المدارك ٥٢١/٣ . ٤

(٢) انظر الرياض ٥٨، ٥٩/٢ ، طبقات الخشني ١٩٩ ، المعالم ٢٩٨/٢ ، وقرات ٢٥٩/١ ، وقد بلغت مجالسه مع الرافضة أربعين مجلساً لم يصلنا منها إلا أربعة. وسوف تأتي ترجمته إن شاء الله تعالى .

(٣) الرياض ٣٧/٢ ، ٣٨ . ٦

(٤) الرياض ١٦٩/٢ . ٧

(٥) انظر عنه وعن ثورته : الكامل ٦ / ٣٠٢ ، اتعاظ الحنفاء ٧٥ ، إتخاف أهل الزمان ١٤٤/١ ، العبر ٤٠/٤ ، ١٣/٧ ، الإباضية بالجريد ١٢٠ ، البيان المغرب ١/٢١٦ ، والنكارية فرقة منشقة من الإباضية بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولتهم الرستمية خالفت في بيعة ابنه عبد الوهاب وأنكرت ذلك (انظر: في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧٦) .

(٦) انظر في مناقشتهم لمسألة الخروج مع أبي يزيد : الرياض ٢٩٢/٢-٢٩٩ ، ٣٣٨-٣٤٥ ، المعالم ٢٩/٣ - ٣٤ ، المدارك ٣ / ٣١٨-٣٢١ .

إلى المهديّة سنة ٣٣٣هـ بقيادة العلماء ، ولكن أبا يزيد غدر بهم فاستشهد منهم خمسة وثمانون عالماً<sup>(١)</sup> ،  
فتنكر الناس لأبي يزيد ، ومنعوه من دخول القيروان .  
وقد شهد عهد أبي يزيد نشاطاً علمياً ملحوظاً حيث عادت الحياة إلى المساجد ، وحلق العلماء  
للتدريس<sup>(٢)</sup> ، ولما استرد العبيديون نفوذهم على القيروان رجع الوضع كهيئته أولاً<sup>٢</sup> .  
ولما لم يجد بنو عبيد استجابة من أهل إفريقية لأفكارهم ، وقابلوا تلك المقاومة انتقلوا إلى مصر سنة ٣٦٢هـ  
تاركين لأنصارهم من بني زيري حكم إفريقية نيابة عنهم .

وفي النصف الثاني من عهد العبيديين دخلت القيروان بعض المصنفات الحديثية الهامة مثل مصنف  
عبدالرزاق<sup>(٣)</sup> ، والجامع الصحيح للإمام البخاري<sup>(٤)</sup> ، وكان أول من أدخل الصحيح هو علي بن محمد  
بن خلف الفاسي ، وكان مما حدث به أيضاً السنن ومسند حديث مالك وتفسير القرآن للنسائي<sup>(٥)</sup> .  
وقام بالتصنيف في تلك الحقبة للباطنيين أبرز مفكرهم أبو حنيفة النعمان بن محمد القاضي القيرواني كتب  
عدة في فقههم وكتابا في التفسير هو أساس التأويل وسيأتي الكلام عليه وعلى تفسيره في موضعه إن شاء  
الله تعالى .

وفي غضون تلك الحقبة قامت دولة الأدارسة الثانية تحت ظل العبيديين بعدما طورد ما يسمى بابن أبي  
العافية بالمخالفة بينهما ، فرجع الملك إلى بني إدريس تحت قيادة إبراهيم بن محمد بن القاسم ، ولما مات  
آلت الرئاسة لأخيه القاسم الملقب بكنون الذي أقام دعوة العبيديين حتى توفي سنة ٣٣٧هـ ، فتولى مكانه  
ابنه أبو العيسى أحمد بن القاسم وكان فقيها ورعا حافظا للسير والأنساب ، وتحت استعاد المغرب وحدته  
وقدم الطاعة لعبد الرحمن الناصر الوالي الأموي وفي عهده سلمت القيادة للأمويين وخرج هو للجهاد  
والاستشهاد في جهاد الأفرنج سنة ٣٤٨هـ ، وترك بدلا منه أخاه حسن بن كنون<sup>(٦)</sup> .

ولما بلغ المعز لدين الله بن إسماعيل العبيدي أن أهل المغرب الأقصى نقضوا إطاعة الشيعة وجه قائده جوهر  
الصللي سنة ٣٤٨هـ إلى المغرب ومعه زيري بن مناد الصنهاجي وغيره فاستطاع القضاء على نفوذ بني أمية  
خلال سنتين وتظاهر حسن بن كنون بمبايعة العبيديين ثم نكث بيعته بقولهم ، وعاد لبني أمية ثم لما تولى

(١) انظر الشجرة ٨٣ .  
(٢) انظر: المدارك ٣/٣٨٨ .  
(٣) انظر: الحشني ١٧٣ ، المعالم ٤٤/٣ .  
(٤) انظر: المدارك ٣/٦١٧ ، الشجرة ١/٩٧ .  
(٥) انظر: فهرست ابن خبير ٤٥، ١١٢، ٥٩، الشجرة ١/٩٧ .  
(٦) انظر: العبر ٤/١٧ ، الاستقصا ١/١٧٨-١٨٢ ، أعمال الأعلام ص ٢١٨-٢١٩ .

بلكين بن زيري أعاد الكرة فبايع حسن بن كنون للعبديين وساعدهم فأحفظ ذلك الخليفة الأموي ، فأرسل جيشا دارت بينه وبين حسن بن كنون معارك وجولات ومفاوضات انتهت بتخلي عائلة الأدارسة عنه بما فيها عائلته ومبايعتهم لبني أمية فاستسلم أخيرا سنة ٣٦٣ هـ ، وبقيت فاس بيد بني أمية حتى استولى عليها زيري ابن عطية المغراوي ، وأكرم الخليفة الأموي الأدارسة المستسلمين إكراما بالغا حتى حدث اختلاف بينه وبين الحسن بن كنون فأجلاهم جميعا إلى تونس ، فرحلوا منها إلى مصر حيث مركز سلطان العبديين (١) .

رابعا : دولة بني زيري أو الدولة الصنهاجية (٣٦٢هـ-٤٤٩هـ) ودولة بني حماد بالمغرب الأوسط ودولة الأدارسة الثالثة بالمغرب الأقصى (٢) :

لقد كان لعائلة بني زيري الصنهاجية (٣) دور هام في القضاء على ثورة أبي يزيد النكاري فكافأهم العبديون بتسليم حكم إفريقية والمغرب ، عندما انتقلوا إلى مصر، ومؤسس هذه الدولة هو أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي (٣٦٢-٣٧٣هـ) الذي استهلك سنوات حكمه في تمهيد البلاد وقمع الثائرين، وخلفه ابنه المنصور (٣٧٤-٣٨٦هـ) وقد شهد عهده عدة ثورات رغم أنه حاول أن يأخذ الناس بالإحسان. (٤)

وفي خلالها حاول الحسن بن كنون بعد أن لجأ إلى نزار بن معد العبدي بمصر استعادة المغرب من بني أمية بجيش العبديين ومعاونة بلكين بن زيري وفعلا تم ذلك، فأرسل الخليفة الأموي جيشا هزم الأدارسة ثم قتل الحسن بن كنون وقضى على الدولة الإدريسية الثالثة سنة ٣٧٥هـ (٥) .

(١) انظر: المقتبس ١٤٦-٨٩/٥ ، البيان ٢٤٨/٢١ ، أعمال الأعلام ص ٢٢١-٢٢٢ ، الاستقصا ١٨٤/١ ، بغية الرواد ص ٨٣ .

(٢) انظر نهاية الأرب ٢٤٦/٢٤-٢١٧ ، إتخاف أهل الزمان ١٢٨/١-١٣٩ ، البيان المغرب ٢٢٨،٢٩٤/١ ، الكامل ٣٣١/٧-١٢١،٨٧،٨٦،٤٦،٤٥ ، ٤٥٥/٨ ، المؤنس ٧٣-٨٥ ، الخلاصة النقية ٤٢-٤٨ ، أعلام ابن عاشور ٤٥،٤٤ ، أعمال الأعلام ٦٦-٧٦ ، بنو هلال ٩٣-٩٨ ، العبر ١٥٥/٦-١٦٣ ، المغرب العربي ١٨٨-١٥٨ ، المغرب الكبير ٢٤١/٢-٦٧٣ ، القيروان ٩٨-١٠٧ ، شهيرات ٨٩٩٠ ، الصراع المذهبي ٢٢١-٢٢٤ ، الفرق الإسلامية ٢٠٨-٢١٦ .

(٣) نسبة إلى صنهاجة وهي قبيلة بربرية كبيرة كان لها دور في مناصرة دعوة الرافضة بالمغرب، وخاصة إبان ثورة أبي يزيد الخارجي انظر : الشجرة ١٠٥/١ ، المؤنس ٧٤ .

(٤) انظر إتخاف أهل الزمان ١٣٣٩/١ ، الكامل ١٢١/٧ .

(٥) انظر : الاستقصا ١٨٥/١ ، البيان ١٨١/٢ ، بغية الرواد ص ٨٤ ، أعمال الأعلام ص ٢٢١ .

فصار ملك المغرب لأهل الأندلس (يعني بني أمية) فولوه مغراوة وأول من ولوه منهم حرز بن حفص وبقي الملك في أيديهم يتوارثونه إلى أن قام المرابطون فغلبوهم عليه<sup>(١)</sup>.

وازدادت الحياة السياسية اضطرابا في عهد باديس بن المنصور (٣٨٦هـ - ٤٠٦هـ) الذي قضى أيامه في حروب متصلة ، حتى إن أعمامه كانوا من بين الثائرين عليه وأعلنوا فيما بعد استقلالهم بقلعة بني حماد في المغرب الأوسط . وبدأت فيه دولتهم بتولي حماد بن بلكين بن زيري سنة ٣٩٨هـ الذي تبعه ولده القائد بن حماد ثم ولده محسن بن القائد إلى أن تولى آخر ملوك بني حماد وهو يحيى بن العزيز بالله سنة ٥١٥هـ<sup>(٢)</sup>.

لقد كان هؤلاء الأمراء الثلاثة بلكين والمنصور وباديس محافظين على تبعيتهم للعبديين وولائهم للمذهب الإسماعيلي ، إلا أنهم لم يتشددوا في مطالبة الناس بالتشيع ، فانفسح المجال تدريجيا أمام العلماء لنشر السنة، وبذلك بدأت الحياة العلمية تعود إلى المساجد والكتاتيب شيئا فشيئا ، غير أن تلك المظاهر الرسمية من التبعية لحكام مصر والدعوة لهم على المنابر كانت تقلق العلماء ، وأسهمت في إيجاد هوة عميقة بينهم وبين حكام بني زيري ، فاستمروا في مقاومة هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا متحمسين للدعوة الإسماعيلية ، وخاصة مع صمود الشعب ومواصلتهم مقاطعة الدولة ، غير أنهم لا يستطيعون الإعلان بذلك خوفا على سلطانهم ، وأحس أهل القيروان بذلك فراح علماءهم يعملون جاهدين على نشر السنة وآراء السلف فعمجت القيروان بالعلماء من جديد ، وكثرت المصنفات في مختلف فروع الشريعة ، فقد ألف ابن أبي زيد (ت ٣٨٦هـ) مصنفات عديدة في الفقه والحديث والرد على أهل البدع<sup>(٣)</sup> وألف القابسي (ت ٤٠٣هـ) في الحديث وأصول الدين<sup>(٤)</sup> ، وغيرهما كثير وانتعشت الحياة الاقتصادية في عهد بني زيري خاصة بعد مجاعة سنة ٣٩٥هـ التي خلت بسببها المساجد، ومات فيها كثير من العلماء والصلحاء<sup>(٥)</sup>.

أما التخلص النهائي من أتباع العبديين ، وانتصار الدين على الرفض وحصول البذخ والأبهة فقد كان على عهد آخر أمراء صنهاجة بالقيروان: المعز بن باديس (٤٠٧-٤٤٩هـ) فقد دام حكمه قريبا من نصف قرن ، شهدت فيها الحياة العلمية بالقيروان عصرها الذهبي ، وعادت البلاد إلى حظيرة أهل السنة والجماعة بصفة رسمية وتوفرت فيها أسباب العمران والحضارة ، ونفقت سوق العلم والأدب وحدث شيء من التقارب بين المعز وعلماء القيروان ، فإن هذا الأمير قد تربى على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة<sup>(٦)</sup> ، وكان

(١) نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان ص ٢٨٩ . ٢

(٢) انظر تاريخ المغرب وحضارته ٦١٥-٦١٧ ، المغرب العربي الكبير ٤٥٥ . ٢

(٣) الشجرة ٩٦/١ . ٣

(٤) المدارك ٦١٨/٣ . ٤

(٥) انظر المعالم ١٢٧/٣ ، البيان ٢٥٦/١ . ٢

(٦) البيان المغرب ٢٧٣/١ . ٦

يضمّر قطع دعوة العبيديين ، فلما علم أهل القيروان بذلك وضعوا السيف فيمن عندهم من الرافضة ، حتى أبادوهم في سائر أنحاء إفريقية وذلك سنة ٤٠٧ هـ في مطلع عهد المعز<sup>١</sup> ، ولم يزل أمر السنة يقوى والمعز يعد العدة للتخلص من سلطان بني عبيد حتى كانت سنة ٤٣٥ هـ وفيها قطع دعوتهم ، ولعنهم على المنابر ، ودخل في طاعة الدولة العباسية وحمل الناس على مذهب الإمام مالك حسما للخلاف ، ولأنه مذهب معظم أهل إفريقية ، وكانت بإفريقية مذاهب منحرفة كالشيعة والصفيرية والإباضية والنكارية والمعتزلة ، ومن مذاهب أهل السنة الحنفية والمالكية ، فلم يبق في أيامه إلا مذهب الإمام مالك<sup>٢</sup> ، ففرح أهل السنة بذلك ، وقضوا على ما بقي من الروافض بإفريقية ولاحقوهم في كل مكان ، فعمت الفوضى حتى اضطر المعز إلى استعمال القوة للسيطرة على الوضع .

ولم يكن الحقد الباطني ليسكت على عودة إفريقية للسنة ، ونبذها علنا لطاعة بني عبيد ، فأرسلوا إليها أعراب بني هلال وبني سليم ، وكانوا ممنوعين من اجتياز نهر النيل لمعرفوا به من الإفساد في الأرض<sup>٣</sup> ، فتسابقوا إليها وجرت بين الأعراب وبين المعز حروب كثيرة كانت فيها الدائرة عليه ، وتمكنوا من دخولها سنة ٤٤٣ هـ ، فخرّبوها وأتوا على الأخضر واليابس ، وتقاسموا مدنها ، فممن قرية إلا وقد سحقت وأكلت ، وأهلها عراة أمام حيطانها ، من رجل وامرأة وطفل ، يبكي جميعهم جوعا وبردا ، وانقطع المير عن القيروان ، وتعطلت الأسواق<sup>٤</sup> .

وأما قابس فاستطاع أن يحكمها بعض القواد العرب وذريته وأما تونس فساعدها موقعها المنيع وانفتاحها على البحر لتصبح أهم مدينة يحكمها بنو فرسان ، وأما الأمير الزيري فالتجأ إلى المهديّة واتخذها عاصمة للدولة الضائعة ، التي استولى عليها النورمنديون سنة ١١٤٨ م ، ثم تمّ الفتح الإسلامي للمهديّة مرة أخرى على يد الموحدين الذين سحقوا القبائل الهلالية وطرّدوا النورمنديين وعينوا في سنة ١٢٠٧ م واليا عليها هو عبد الواحد بن أبي حفص الذي أسس فيها مملكة لمدة ثلاثة قرون<sup>٥</sup> .

( ١ ) انظر تفصيل ذلك في الكامل ٧/٢٩٤ ، نهاية الأرب ٢٤/٢٠٢-٢٠٤ ، البيان المغرب ١/٢٦٨ .

( ٢ ) المؤنس ٨٢ ، وانظر الشجرة ٢/١٢٩ .

( ٣ ) انظر عن أصل بني هلال وأشتهارهم بالتخريب والفساد ودخولهم إفريقية : العبر ٦/١٣ ، البيان المغرب ١/٢٨٨-٢٩٥ ، تاريخ التمدن الإسلامي ٤/٣٢٤ ، رحلة التجاني ١٦ .

( ٤ ) انظر تفصيل ذلك في الكامل ٨/٥٩ ، العبر ٤/٦٣ ، ٦/١٣٦ ، ١٥٩ ، البيان المغرب ١/٢٩٦-٢٩٤ ، إتخاف أهل الزمان ١/١٣٩ ، المعالم ١/٢٠١ ، ١٥٠/٣ ، ١٩٠-١٩٢ ، الشجرة ٢/١٢٨-١٣١ ، وقد أُلّف في ذلك محمد بن سعدون القروي (ت ٤٨٦ هـ) كتابا سماه "تعزية أهل القيروان بما جرى في البلدان من هيجان وتقلب الأزمان" ، انظر البيان المغرب ١/٢٨١ .

( ٥ ) تاريخ تونس ص ٤٨-٥٢ .

وبذلك انتهت حضارة القيروان التي كانت العاصمة الدينية والعلمية والسياسية لإفريقية والمغرب ، فهي منذ الفتح إلى أن خربت دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكبر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم<sup>(١)</sup> ، فلما خربت جلا أهلها عنها وتفرق من بقي حيا<sup>٢</sup> من علمائها في الأمصار<sup>(٢)</sup> ، ولم تعد إليها الحياة العلمية إلا بعد أكثر من قرن من الزمان وذلك بعد سنة ٥٥٥ هـ<sup>(٣)</sup> ، إلا أنها لم تعد أبدا إلى سالف عهدها ، وانتقل مشعل العلم والحضارة بإفريقية إلى المهديّة ثم إلى تونس الحفصية .

#### خامسا : عصر المرابطين والموحدين (٤٣٤ هـ - ٦٦٨ هـ)<sup>(٤)</sup> :

ينتسب الملتزمون الذين عرفوا فيما بعد بالمرابطين إلى قبيلة لمتونة إحدى بطون صنهاجة أعظم قبائل البربر وسموا بالملتزمين ، لأنهم يضعون اللثام على وجوههم ليلا ونهارا حضرا وسفرا ، وقد بدأت دعوة المرابطين على يد الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين ، الذي وفد مع زعيم قبيلة جدالة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى بلاد جدالة ، عندما عاد من الحج سنة ٤٢٩ هـ ، فلم يستطع نشر دعوته في شنقيط لمعارضة الوجهاء والكبراء فانتقل إلى جزيرة منعزلة بالسنغال ومعه يحيى بن إبراهيم وبعض أتباعه ، وأسس هناك رباطا بث منه دعوته وأرسل البعوث إلى القبائل فالتف الناس حوله وسموا المرابطين بسبب ملازمتهم لهذا الرباط ، ثم أعلن لهم ضرورة خروجهم لدعوة الناس وإخراجهم مما هم فيه من الطغيان ، فبدأ الكفاح المسلح وأخضع عدة قبائل منها قبائل كدالة وملتونة وكسوفة<sup>(٥)</sup> .

وفي عام ٤٤٧ هـ توفي الأمير يحيى بن إبراهيم ، فاختر ابن ياسين يحيى بن عمر من قبيلة لمتونة لقيادة جند المرابطين الذي اتجه إلى فتح كثير من بلاد السودان الغربي ، ثم استغاث فقهاء درعة وسجلماسة بعبد الله بن ياسين وجيوشه لتخليصهم من المنكرات والفساد ، الذي تمر به البلاد فاستولوا على سجلماسة التي

(١) انظر الشجرة ١٣٠/٢ ، مقدمة ابن خلدون ٤٣١ .

(٢) انظر المعجب ٣٥٨ .

(٣) انظر المعالم ٢٠٣/٣ .

(٤) انظر : الحلال الموشية ص ٢٧-١٩ ، تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٧ ، المؤنس في أخبار إفريقية ص ١٠١-١٠٢ ، أعمال الأعلام ص ٢٣١، ٢٢٧ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (كاملا) ، أخبار المهدي بن تومرت (كاملا) ، الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي (كاملا) ، عصر المنصور الموحد (كاملا) ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ١٠، ١١، ١٥/٢ ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ٢/٢٠٩ ، الاستقصا ٢/٩ ، البيان المغرب ٤/٨ ، في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٧ ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١ ، تاريخ الشعوب الإسلامية ١٨٣/٢ ، قيام دولة المرابطين (كاملا) ، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (كاملا) ،

(٥) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١٨٣/٢ ، في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٨ ، موريتانيا بلاد شنقيط ص ١٠، ١١ .

مالبت أن ثار أهلها ونجحوا في استعادتها ، ثم قتل الأمير يحيى بن عمر فاختر ابن ياسين أخاه الأمير أبو بكر بن عمر سنة ٤٤٨ هـ ، الذي اندفع إلى الشمال فقاتل قبائل برغواطة التي اعتنقت المجوسية ومات أثناء ذلك ابن ياسين متأثراً بجراحه ، فاستمر أتباعه في نفس الطريق وترك أبو بكر بن عمر السلطة لابن عمه يوسف بن تاشفين<sup>(١)</sup> ، هو القائد المظفر الذي تمكن من إحكام قبضته على المغرب الأقصى ، وبناء مراكش واعتبر هو المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين ، ثم انطلق إلى الأندلس في مواجهة النصارى حتى توفاه الله وتولى ابنه علي بن يوسف تاشفين الذي سار سيرة والده ، وكان لانتصاراته صدى واسع في العالم الإسلامي<sup>(٢)</sup> .

وفي أثناء ذلك ظهر محمد بن تومرت الذي ينتسب إلى بيت النبوة ونشأ نشأة دينية ورحل في طلب العلم إلى الأندلس ، ثم إلى المشرق وكر راجعا للمغرب والتقى في عودته بالمدعو عبد المؤمن بن علي الذي صحبه وحفظ عنه تعاليمه ولما وصل مراكش سنة ٥١٥ هـ قام بدوره في الوعظ والإرشاد ، حتى وصل نبؤه إلى علي بن يوسف بن تاشفين ، فجمع له مجلسا من الفقهاء تناظروا فيه حول المنكرات التي تفتشت في المجتمع وتأثر الأمير بكلامه إلا أنه أمر بطرده من مراكش خشية الفتنة ، فكانت تلك الشرارة لإعلانه خلع علي بن يوسف والدعوة لمبايعته ، واتخذ مدينة تينملل مركزا له ودخل في صراع مرير مع المرابطين انتهى بموته سنة ٥٢٤ هـ ، فتحمل أعباء دعوته عبد المؤمن تلميذه المخلص ، والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين فاستغرق سنة ونصفا في تنظيم شعون الموحدين ، ثم بدأ الكفاح المسلح ضد المرابطين ، وكانت لوفاة علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٧ هـ أثر كبير في فت عضد دولته ، حتى بعد تولي اسحق بن علي بن تاشفين السلطة بعد نزاع عليها مع ابن أخيه إبراهيم بن تاشفين ، وتمكنت جيوش الموحدين من إسقاط مراكش سنة ٥٤١ هـ ، وكانت تلك نهاية دولة المرابطين وبداية دولة الموحدين<sup>(٣)</sup> .

وفي عصر المرابطين الأنف ذكرهم كانت علاقة الود والوثام باقية بينهم وبين بني زيري بالمغرب الأدنى حفاظا على الصلات القبلية بينهما فكلاهما من قبيلة صنهاجة البربرية ، ووقف المرابطون بجوار الزيريين ضد خطر النورمنديين .

(١) انظر الأعلام ٣٤/١

(٢) انظر أعمال الأعلام ص ٢٢٨، ٢٣٠ ، قيام دولة المرابطين ص ٢٢٠، ٢١٩، ١٤٧ ، المؤسس<sup>٢</sup>

١٠٣-١٠٥ ، الأنيس ١٧/٢-٢٠ ، الاستقصا ١٩/٢ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ١/١٢١، ٧١ ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٠-١٧١ ، البيان المغرب ٥٢/٤ .

(٣) انظر الدولة الموحدية ص ٤٧ ، صبح الأعشى ١٣٦/٥ ، المعجب ص ١٧٨-٣٠٣ ، العبر ٦/٢٢٦ ، تاريخ الدولتين

ص ٢، ٣ ، الأنيس ١٠٧/٢ ، أعمال الأعلام ٢٦٤-٢٦٧ ، النبوغ المغربي ٧٣/٢ ، نظم الجمال ص ٩٤، ٩٣ ، عصر المرابطين والموحدين ١/٢٢٥ ، موريتانيا بلاد شنقيط ص ١٣، ١٢ .

أما بالنسبة لبني حماد وهم كذلك من صنهاجة فلم تكن العلاقات معهم ودية تماما، وإنما تخللها مناوشات كان العامل فيها ضعف بني حماد أمام أعراب بني هلال ، الذين خربوا القيروان وقوضوا ملك بني زيري فأدى كفاح المرابطين من أجل السيطرة على المغرب الأوسط إلى اصطدامهم ببني حماد غير أن ذلك لم يصل إلى الصدام المسلح<sup>(١)</sup>.

وبعد أن أحكم عبد المؤمن الموحي قبضته على المغرب الأقصى توجه إلى الشرق حيث توالى انتصاراته حتى وصل إلى طرابلس وبذلك نجح الموحدون في تحقيق وحدة سياسية للمغرب الإسلامي تدار شؤونها من عاصمة الخلافة مراكش ، ولم ينس أيضا واجبه نحو الأندلس فجهز حملة كبيرة لدفع النصارى سنة ٥٥٦ هـ إلا أنه مرض مرضا أفضى إلى موته حال دون إتمام الحملة وذلك سنة ٥٥٨ هـ ، وتولى خلفا له ابنه يوسف بن عبد المؤمن الذي تمكن من خمد ثورة ضده من الصناهجة ، ثم والى الحملات على الأندلس حتى أصيب في آخرها وتوفي على إثر ذلك سنة ٥٥٨ هـ، وتولى بعده ابنه يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور وفيه بلغت دولة الموحدين أوج ازدهارها وقضى أيضا على بعض الثورات الداخلية ، وحقق نصرا هائلا بالأندلس في معركة الأرك التي أوقفت زحف النصارى وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم ، وفي سنة ٥٩٥ هـ أصيب المنصور بوعكة أدت إلى وفاته<sup>(٢)</sup>.

ثم تولى بعده ابنه محمد بن يعقوب الملقب بالناصر الذي استطاع أيضا إخماد ثورة بني غانية بإفريقية ، وولى عليها الشيخ أبا محمد عبدالواحد ابن أبي حفص الهنتاتي ، وكان من أشيخ الموحدين وكانت ولايته بداية لقيام الدولة الحفصية بتونس بعد ضعف دولة الموحدين ، بعد أن منيت بهزيمة قاسية في معركة العقاب سنة ١٦٠ هـ على أيدي النصارى راح ضحيتها الكثير من جند الموحدين وعجلت بسقوط الأندلس بعد ذلك في أيدي الفرنجة ، وأصيب الناصر بالمرض وتوفي سنة ٦١٠ هـ فتصارع أبناء عبد المؤمن على السلطة وسرى الضعف في أرجاء الدولة حتى سقطت سنة ٦٦٨ هـ . وفي حين كانت دولة المرابطين تابعة للخلافة العباسية ببغداد اعتبر

الموحدون أنفسهم خلفاء وأن مركز الخلافة مراكش وليس بغداد<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص ٢١٩-٢٣٢، قيام دولة المرابطين ص ٣٢٨-٣٢٩، ٣٨٨ .  
(٢) انظر الأنيس ١٩٣/٢، ١٨٦، ١٦٨، ١٦٣، المعجب ٢٥٦، ٢٣٥، ٢٣٠ ، نظم الجمان ص ١٦٩، تاريخ الجزائر ٢/٢٢٤، الاستقصا ١٤٩/٢، ١٤٧، البيان المغرب ٤/٧٢، ٦٥، المؤنس ١١٤، أعمال الأعلام ٢/٣٠٩، الحلل الموشية ص ١٥٦ .

(٣) انظر البيان المغرب ٤/٩٢، تاريخ الدولتين ص ١٤٧، الأئيس ص ١٦٨، عصر المرابطين أوالموحدين ص ٢٧٠، تاريخ الشعوب الإسلامية ١٩٨/٢، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠٨، المعجب ص ٣٢٣، المؤنس ١١٩، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ١٦٦/٢ .

وفي تلك الحقبة ازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهارا بالغا ، وتنوعت مصادر الدخل وشمل الازدهار الزراعة والصناعة والتجارة<sup>(١)</sup> ، واتجهت الدولة للبناء<sup>٣</sup> والتعمير فأستست المدن ومن أهمها مراكش التي أسسها المرابطون كما تقدم ومدينة تلمسان ومدينة تاودا ومدينة رباط الفتح المعروفة الآن بالرباط ، والتي قام بتأسيسها الموحدون كما أسست المنشآت العسكرية والمنشآت العامة كالمساجد والمدارس وغيرها<sup>(٢)</sup> .

وأما الناحية العلمية فكانت في أوج ازدهارها ، وكرم طبقة طلاب العلم تكريما يفوق الوصف خاصة في دولة الموحدين ، أما طبقة الفقهاء والعلماء والقضاة فاحتلت منزلة رفيعة في المجتمع المغربي منذ قيام دولة المرابطين ، وظهر لهم نفوذ في مجريات الأمور وخاصة في دولة المرابطين ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدولتين قامتتا على أساس ديني ودعوة إصلاحية ، وتحقق لهم في ظل الدولتين مستوى مادي رفيع جدا كان له أبلغ الأثر على إثراء الانتاج العلمي في شتى مجالاته وفي مقدمتها مجال التفسير حيث زاد الاقبال على دراسة القرآن الكريم ، باعتباره مصدر التشريع الأول في الدولتين ومن اشتهر من العلماء في تلك الحقبة أبو الحسن علي بن محمد الغرناطي المفسر نزيل مراكش ، وكان عالما زاهدا يجتمع إليه الناس فيفسر لهم القرآن من أوله إلى آخره<sup>(٣)</sup> ، وأبو بكر محمد بن علي المعافري السبتي عرف بابن الجوزي ، وله تفسير في القرآن<sup>(٤)</sup> ، وعبدالجليل بن موسى الأنصاري الأوسي ت ٦٠٨هـ وله تفسير القرآن<sup>(٥)</sup> ، ومن التفاسير التي اعتنى بها المغاربة في تلك الفترة:

كتاب الوجيز لعبد الحق بن عطية ت ٥٤١هـ<sup>(٦)</sup> .

وكان من شيوخ المرابطين الشيخ أبو محمد يرزجان بن محمد الجزولي الضير الذي قدم مراكش ، وكان عالما فاضلا بصيرا بمذهب مالك صحب الإمام أبا بكر بن العربي صاحب أحكام القرآن<sup>(٧)</sup> .

وقد أرسل أبو بكر بن العربي رسالة إلى الخليفة المستظهر العباسي يزكي فيها الأمير يوسف بن تاشفين عنده<sup>(٨)</sup> .

- (١) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ١٨١-٢٨٨ . ٤
- (٢) الحضارة الإسلامية ٣٧٢-٤٠٤ . ٤
- (٣) التشوف ص ٢٢٦ . ٥
- (٤) النبوغ المغربي ١/٩٥، ٧٧ . ٤
- (٥) العلوم والآداب ص ٤٤٠ . ٤
- (٦) عصر المنصور ص ٢٤٧ . ٨
- (٧) انظر : ترتيب المدارك ٤، ٣، ٧٨٠، دور المرابطين ص ١٤٣ . ٤
- (٨) محققة مع كتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ص ١٨٢-٢٠٠ . ٢

وأما علم الحديث فنال عناية فائقة لاسيما في عصر الموحدين فبعد أن كان التركيز في عهد المرابطين على الموطن أصبح الاهتمام بالحديث عموما السائدة في عصر الموحدين ، واهتم به الخلفاء اهتماما كبيرا ، وكان بعضهم يقوم بإملاء الأحاديث بنفسه ، وانتشرت المؤلفات فيه في ذلك العصر ، كما اعتبر عهد الموحدين عهد إحياء الاجتهاد ( ) .

وقد أدى ضعف الموحدين في نهاية عهدهم إلى تمزق دولتهم الشاسعة الأطراف على النحو التالي : سقطت الأندلس في يد الأسبان والبقية الباقية التي لم تقع في أيديهم استقلت تحت إمرة بني الأحمر أصحاب غرناطة .

وأما منطقتنا فقد ظهرت فيها ثلاث دول إسلامية ظلت تتنازع السلطان وتحاول كل منها التوسع على حساب جارثها وهي :

الدولة الحفصية في المغرب الأدنى .

الدولة الزيانية في المغرب الأوسط .

الدولة المرينية في المغرب الأقصى ( ) .

ومنذ ذلك الحين يعتبر المغرب الإسلامي الكبير قد انقسم إلى ثلاث دول لكل منها تاريخه المستقل ، والتي آلت حاليا إلى تونس والجزائر والمغرب (ويتبعها موريتانيا) وعليه فسوف تكون دراستنا الحالية لكل منها على حدة إلى الاحتلال الفرنسي وقد حكم تونس بعد الحفصيين الأتراك وفي عهدهم فرضت الحماية الفرنسية، وحكم الجزائر بعد بني زيان الأتراك وفي عهدهم وقع الاحتلال الفرنسي ، وأما المغرب فحكمها بعد بني مرين الوطاسيون ، ثم السعديون ثم العلويون وفي عهدهم فرضت الحماية الفرنسية .

## - أحوال المنطقة حتى الاحتلال الفرنسي :

### أولا : تونس

الدولة الحفصية في المغرب الأدنى (تونس) ١٢٣٠م\_١٥٧٤م ( ) :

( ) انظر : الأنيس ١٥٤/٢ ، الاستقصا ١٢٦/٢ ، المعجب ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، عصر المنصور الموحدي ص ٢٥٦ ، الفكر السامي ١٧٠/٣-١٧٣ .

( ) المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ص ٢٦ .

( ) انظر : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (كاملا) ، الدولة الحفصية (كاملا) ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية (كاملا) ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (كاملا) ، تاريخ تونس ص ٦٠-٦٣ ، المغرب العربي الكبير ص ٢٧-٩١ .

وتنسب إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني نسبة إلى قبيلة هنتانة البربرية وهو من خاصة ابن تومرت وأحد مريديه ، وكانت له مكانة كبيرة لديه وقد استطاع أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص ولد المذكور بعد أن ولاه الخليفة الموحد الناصر على تونس أن يقضي على كثير من الاضطرابات ، فهزم ابن غانية كما تقدم ، وخلفه ابنه عبد الرحمن سنة ٦١٨ هـ الذي تولى بعده أبو زكريا الحفصي سنة ٦٢٧ هـ واستطاع أن يعلن استقلاله بتونس والقيروان عن دولة الموحدين بعد أن دب إليها الضعف ونازعها بنو مرين السلطة على المغرب الأقصى ، وقمع ابن غانية عندما عاد للاضطرابات مرة ثانية وقتله ، وقمع ثورة قبيلة هواره فاستتب له الأمر بتونس ، ثم توسع فاستولى على الجزائر وبايعته تلمسان وسجلماسة بل بايعته بعض بلاد المغرب الأقصى (١) .

ثم واصل محمد والذي لقب بالمستنصر تلك الأعمال بنجاح أكثر وتلقب رسميا بلقب الخليفة أو أمير المؤمنين ، وأرسل له أمير مكة والحجاز بمبايعته وأراد الصليبيون ضرب قلب الإسلام فشن القديس لويس الحملة الصليبية الثامنة (٢) ضد تونس سنة ١٢٧٠ وانتهت بمعاهدة صلح تنازل فيها الخليفة المستنصر فرضي بدفع غرامة حربية بالإضافة إلى مضاعفة ما كان يدفعه إلى ملك صقلية من أتاوة ، ثم بدأت الانتفاضات على الحكم والاضطرابات وهجوم الأروغينيين على سواحل تونس بعد استقرارهم بصقلية . ثم احتل بنو مرين تونس لمدة عشر سنوات من سنة ١٣٤٧م \_ ١٣٥٧م حتى ظهر الأمير الحفصي أبو العباس والي مقاطعة قسنطينة الذي استطاع إعادة البلاد لوحدها وللدولة الحفصية هيبتها بداية من سنة ١٣٧٠م واستطاع هو وأبو فارس خلفه وعثمان خلف أبي فارس أن يكبحوا جماح المنشقين ، ويكسروا شوكة القبائل ، وشنوا على أوروبا المسيحية حرب القرصنة ، وعقدوا معاهدات تجارية مع إيطاليا ، وذلك خلال مدة طويلة في الحكم سنة ١٣٧٠م \_ ١٤٨٨م من طرابلس إلى مدينة الجزائر . وفي الفترة الأخيرة من العهد الحفصي ظهرت الاضطرابات من جديد ، وانحلت الدولة حتى انحصرت في مدينة تونس وما يحيط بها ، وتوالت هجمات النصارى على السواحل وتفاقم أثرها وفقدت الدولة القدرة على ردع القوى الانفصالية داخليا واحتل الأتراك ثم الأسبان على التوالي تونس سنة ١٥٣٤م ، ١٥٣٥م ، وكانت السواحل مسرحا للصراع الأسباني التركي .

(١) المغرب العربي الكبير ص ٢٨، ٢٧ .

(٢) هي الحملة الثامنة والأخيرة في الحروب الصليبية وسبقها سبعة الأولى لفلسطين ٤٩٣ هـ احتلت القدس ، الثانية ٥٤٤ هـ أبيدت ، الثالثة ٥٨٥ هـ لاسترجاع القدس بعد صلاح الدين فشلت ، الرابعة ٥٩٩ هـ لاسترجاع القدس فشلت ، الخامسة ٦١٤ هـ لمصر فشلت ، السادسة ٦٢٦ هـ للقدس فشلت ، السابعة ٦٤٦ هـ مصر فشلت ( انظر الدولة الحفصية ١٥٢-١٥٨ ) .

في أثناء التوسعات الأسبانية والبرتغالية ظهر على الساحة بحاران جزائريان هما الأخوان (عروج) ، (خير الدين) فقد اتخذ عروج جزيرة جربة التونسية قاعدة لنشاطه بالاتفاق مع السلطان الحفصي محمد بن الحسن ونجح هو وأخوه في إنقاذ كثير من مسلمي الأندلس ، ونقلهم منها فاستنجدت به المدن الساحلية في المغرب لتخليصهم من الأسبان فبترت ذراعه في أثناء محاولة تخليص بجاية سنة ٩١٨هـ (١).

وبعد أن خلع الأتراك السلطان الحفصي من العرش أعاده القائد الأسباني بعد أن أدخله تحت حمايته وجعله تابعا له ثم خلعه ابنه أحمد وخلفه سنة ١٥٤١م ، ولم يكن أسعد حظا منه ، واستطاع القائد التركي الاستقرار في طرابلس والاستيلاء على القطر التونسي ، وفي سنة ١٥٦٩م دخلت الجيوش التركية بقيادة والي الجزائر تونس وطردت منها السلطان الحفصي، ثم استولى الأسبان على تونس من جديد سنة ١٥٧٣م إثر هزيمة الأسطول العثماني أمام القائد ليبانت ، وأقاموا فيها حكما مشتركا أسبانيا حفصيا حتى قدم الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا الذي استرجع تونس ، وأنهى حضور الأسبان والدولة الحفصية بإفريقية.

واتجه خير الدين الوالي على الجزائر إلى تونس وذلك في نهاية الدولة الحفصية ، فدخلها في جيش من الأتراك فتوجه الأمير الحفصي الحسن بن أبي عبد الله إلى أسبانيا مستنجدا بملكها الذي أعد قوة ضخمة ، فدخل تونس وعاث فيها فسادا ونهب جامع الزيتونة ، وأعاد الأمير الحفصي لملكه مقابل شروط أثارت عليه الأهالي فسلموا عينيه وخلفه ابنه الذي حاول وقف التيار الأسباني فلم يستطع ، وتمكن الأسبان من الاستيلاء على موانئ صفاقس وسوسة والمنستير ، وأدى صراع الأمير الحفصي أبي العباس الثاني ووزيره إلى دخول العثمانيين في الصراع مع الأسبان ، كان من حلقاته هزيمة الأسطول التركي سنة ١٥٧١م ، وإعادة الحفصيين إلى حكم تونس سنة ١٥٧٣م إلا أن القائد العثماني سنان باشا استطاع في عام ١٥٧٤ القضاء نهائيا على الحفصيين في تونس .

ومن حلقاته أيضا محاولة شارل الخامس سنة ١٥٤١م توجيه ضربة قاضية للأتراك في الجزائر ففشل واستطاع الأتراك سنة ١٥٥٨م ، أن يوجهوا ضربة قاضية للأسبان قرب مستغانم ثم انتزعوا ميناء طرابلس من فرسان بيت المقدس وأخذ نشاط الأسبان يضعف (٢).

وفي العهد الحفصي أنشئت الكتاتيب لتعليم القرآن وازدهر نشاط المذهب المالكي وظهر من العلماء أمثال ابن زيتون وابن عرفة ، الذي يعتبر آخر كبار المجددين في زمنه وبعده أعلن علماء بلاد المغرب غلق باب الاجتهاد فتحجر العلم وأجدبت أرضه وانطوى العلماء ولقي التصوف راجا كبيرا وغدا الانحراف فيه كبيرا وشيدت الأضرحة ولجأ الناس إلى الخرافات والبدع ، التي أيدت من قبل الأمراء لأغراض سياسية وظهرت

(١) انظر : صفحات من تاريخ مدن الجزائر ص ٤٢ ، إتحاف أهل الزمان ٩/٢ ، تاريخ الجزائر الحديث ص ٢٦ .

(٢) انظر المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ص ٤٤-٩١ .

عبادة الأولياء والصالحين تحت حماية السلطة إلا أنه مع ذلك التدهور لم تخل المنطقة من ظهور بعض المفكرين وعلى رأسهم عبدالرحمن بن خلدون الذي ولد بتونس ورحل وتعلم وأثرى المكتبة الإسلامية بكتابات نافعة سنة ١٣٣٢-١٤٠٦ م ، كما ظهر من علماء الحديث الحافظ ابن سيد الناس والمؤرخ أحمد بن محمد القرشي (١).

وكان التفسير يدرس بالمدارس والجوامع وسمي الدرر دولة وقد ذكر العبدري في رحلته أنه سمع دولا من التفسير عن الليدي وابن الغماز ، وقد ظهر من التفاسير في العصر الحفصي غير تفسير ابن عرفة المتقدم تفسير ابن بزيعة عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد القرشي التميمي التونسي ت ٦٧٤هـ الذي جمع فيه بين تفسيري ابن عطية والزمخشري ، وإعراب القرآن لأبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن محمد القيسي الصفاقسي سنة ٧٥٢هـ ، وكانت تدرس في ذلك العصر مشاهير التفاسير مثل الزمخشري وابن عطية والفخر الرازي وأبي حيان (٢).

#### الدولة العثمانية في تونس وحتى الاحتلال الفرنسي :

لما اشتد الخلاف بين أبي العباس الثاني الأمير الحفصي ووزيره استنجد الوزير بعلج علي والي الجزائر فخرج بجيشه واستحوذ على تونس ، فاستنجد الأمير الحفصي بالأسبان فوافقوا على أن يقتسموا معه تونس ، فرفض العرض وقبله أخوه محمد بن الحسن وتمكن من استرجاع تونس بمساعدتهم وفي عام ٩٨١هـ اتجهت قوة عثمانية كبيرة من القسطنطينية بقيادة سنان باشا معها ألف سفينة بقيادة عالج علي مع قوات أخرى من الحاميات التركية ، وأتموا فتح تونس وانتهت الدولة الحفصية تماما (٣).

#### حكم الدايات :

ولما أتم سنان باشا فتح تونس ألحقها في بداية الأمر بولاية الجزائر لكنه أوجد ديوانا اشترك فيه بعض أعيان البلاد لكن ثار بعض الجند على رؤساء الديوان ، وعينوا أحد الدايات (الداي ضابط على كل ١٠٠ جندي) وهو إبراهيم ود علي حاكما على البلاد فأقرت الأستانة هذا الوضع وتتابع حكم الدايات حتى سنة ١٦٤٠م (٤).

(١) تاريخ تونس ص ٦٠-٦٣ ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ٢٩٩/٤-٤٢٢ ، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهد الحفصي والتركي ص ٣٢ .

(٢) جامع الزيتونة ص ٣٣ ، ٣٢ .

(٣) الاستقصا ٥/٦١ ، ٦٠ ، ٥٩ .

(٤) انظر خلاصة تاريخ تونس ص ١٦١-١٦٥ .

## حكم البايات : والباي هو المأمور بجباية المال .

ونجح أحد البايات وهو مراد باي في السيطرة على شئون تونس وظفر من الخلافة بلقب باشا ونجح في أن يورث الأمر من بعده لأبنائه ، فأسس الأسرة المرادية التي حكمت تونس حتى عام ١١١٤هـ وكثر النزاع بين أفراد هذه الأسرة مما أدى إلى التخريب في المدن التونسية<sup>(٦)</sup> .

## حكم الأسرة الحسينية<sup>(٧)</sup> :

في سنة ١٧٠٥م انتقلت الولاية في تونس إلى حسين بن علي الذي أسس أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الحسينية ، التي استمرت إلى الاستقلال وإعلان الجمهورية سنة ١٩٥٧م والمؤسس الأول لها هو حسين باي الأكبر كان قد وفد أبوه من تكريت على تونس أيام الدولة المرادية ، فأنخرط في الجند ونشأ ابنه حسين في كنف البايات من بني مراد وتدرج في الولايات حتى انتخب واليا وعمل عدة أعمال إصلاحية منها : إنشاء بعض المدارس واهتم بإحياء معالم القيروان بعدما تحربت في حروب بني مراد ، وأراد حسين باي أن يجعل الحكم في الأكبر من ذريته فالأكبر فخرج عليه ابن أخيه علي بن محمد وقتل حسين باي جنوب القيروان ، ونشبت الحروب بين الأسرة حتى تدخلت الجزائر في شئون تونس ، وتولى علي بن محمد المشهور بالباشا علي الحكم ، واشتهر بتشجيعه العلم والعلماء وكان هو نفسه على قدر كبير من العلم وله كتاب في النحو هو التسهيل لابن مالك ، وأسس مكتبة عظيمة حوت الكثير من المخطوطات فقد أكثرها أثناء الحروب والاضطرابات بين أفراد الأسرة فنقل المتبقي إلى جامع الزيتونة ، واهتم بتأسيس المدارس وتزويدها بحاجتها من الكتب وغيرها والتف حوله كثير من الأدباء والعلماء ، وتولى الأمر بعده ابنه محمد باي ثم علي باي الثاني فاهتم أيضا بالمدارس والتكايا وغير ذلك .

ثم تولى حموده باشا ابن علي باي ١٧٨٣م الذي نهض بالبلاد في مجالات الفلاحة والتجارة والصناعة ، وحفلت مدته بالحروب منها ضد الثائر علي برغل وضد أطماع الجزائريين في تونس ، وكان له علاقات طيبة مع نابليون بونابرت ومعاهدات تجارية مع أسبانيا وهولنده وأمريكا ، ثم تولى السلطة محمود باي ابن عم حموده (سنة ١٨١٤-١٨٢٤م) شهدت فيها البلاد كثيرا من أوجه العمران وتعددت بها الجوامع والمدارس والتكايا وغيرها وساعد على ذلك الهدوء الذي ساد البلاد عقب إنهاء الصراع على الحدود مع الجزائر بتدخل الدولة العثمانية ، ثم تولى ابنه حسن باي سنة (١٨٢٤-١٨٣٥م) ، وفي عهده وقعت موقعة نوارين البحرية بين العثمانيين والأوروبيين ، وهزم فيها الأسطول العثماني ، وفيه أيضا هاجمت فرنسا الجزائر .

(٦) انظر خلاصة تاريخ تونس ١٦٥-١٦٧ .

(٧) انظر خلاصة تاريخ تونس ص ١٦٧-١٧٧ ، ١٩٥ ، ١٩٢ :

ثم تولى الحكم أخوه مصطفى باي ثم خلفه المشير أحمد باي الذي أنشأ مدرسة عسكرية واستقدم لها المدرسين ، وأصبح لتونس جيش قوي ، واهتم بتنظيم التعليم بجامع الزيتونة ودعا عددا من الأساتذة الأجانب للالتقاء بأساتذته مما أدى إلى الاحتكاك بين العقلية الإسلامية والعقلية الغربية وقام بتأسيس المكتبة الأحمدية ، وزار فرنسا بنفسه مع جماعة من رجال الدولة لتوطيد العلاقات بين الدولتين ، وقام بإلغاء الرق ومنع الاتجار فيه فحمد فعله ذلك من الدول الأوروبية ، وأرهقت الدولة في عهده بالمصروفات الكثيرة ، وأدى اشتراكها في حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا إلى زيادة التدهور الاقتصادي (١) .

ثم تولى بعده محمد باي الثاني (سنة ١٨٥٥-١٨٥٩م) ، فضغطت فرنسا وانجلترا عليه بإصدار ما يسمى عهد الأمان ، الذي منح الأجانب مزايا عديدة (٢) .

واهتم محمد باي بتنظيم القضاء الشرعي ، فكان المجلس الشرعي يعقد يوميا ويحضره القاضيان المالكي والحنفي ، وأدخل في عهده الطباعة العربية واشتهر في دولته كثير من رجال العلم ومنهم القاضي محمد الطاهر بن عاشور وشيخ الإسلام بيرم الرابع وغيرهما (٣) .

وحاول محمد باي إصلاح الوضع الاقتصادي ، ثم تولى محمد الصادق باي (سنة ١٨٥٩م-١٨٨١م) الذي بدأ جهودا صادقة لإصلاح البلاد إلا أنه ضاعف الضرائب على الأهالي واقترض بأرباح فاحشة ، وكان ذلك سببا في اندلاع ثورة ابن غداهم سنة ١٨٦٤م (٤) مطالبة بتخفيف ذلك ورفع الظلم إلى أن استطاعت الدولة القضاء عليها بعد أن نشرت الفرقة بين صفوف الثوار ، ثم تلاها ظهور مرض الكوليرا ثم الحمى التيفوسية ، فأدى ذلك إلى تعطيل الأوضاع ، وأصيب الناس بضيق شديد .

ولما تولى خير الدين (٥) الوزارة بحكومة تونس سنة ١٨٧٣م بدأ بعلاج مشاكله ، فألغى الضرائب الباهظة وأجرى حركة تطهير بين الموظفين ، وقام بعدة أعمال إصلاحية . وفي مجال التعليم أنشأ أول معهد درست فيه العلوم العصرية ، وكان هدفه التوفيق بين العلوم العصرية والتقاليد الإسلامية وتعليم اللغات ، وهي المدرسة الصادقية وفكر في إرسال الممتازين من خريجائها للدراسة في جامعات أوروبا كما زاد مرتبات المدرسين

(١) انظر الحركة الأدبية والفكرية في تونس ص ١٢-٢٣ .

(٢) إتخاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ٢٥/٤ ، خلاصة تاريخ تونس ص ٢٠٠-٢٠١ ، الاتحاف ٩٦/٣-١١٠ ، تونس في عهد الحماية ص ١٥٣-١٥٤ .

(٣) خلاصة تاريخ تونس ص ٢٠٧-٢٠٩ .

(٤) ثورة علي بن غداهم - لجام غانياج ، ثورة ابن غداهم : ب سلامة (كاملين) .

(٥) له كتاب : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك وضعه غلام ١٢٨٤هـ وطبع في الإسكندرية سنة ١٢٩٩هـ في مبادئه التنظيمية التي كان يؤمن بها .

بجامعة الزيتونة وأسس المكتبة الصادقية وحظيت حركة الطبع والنشر في أيامه باهتمام كبير ، وصدرت أول صحيفة عربية في تونس وهي صحيفة الرائد<sup>(١)</sup> ، ثم طلب خير الدين إعفائه بسبب الدسائس التي حاكها مصطفى إسماعيل ضده عند الباي ، وتولى مصطفى بدلا منه سنة ١٨٧٧م وكان توليه بداية النكسات من جديد على تونس ، حتى سقطت في يد الاستعمار الفرنسي<sup>(٢)</sup> .

وفي العهد التركي بصفة عامة . كان الفقه والإنتاج الثقافي قد غلبت عليه التبعية والتقليد نتيجة للعوامل الفكرية التي كانت تسيطر آنذاك ، وكأن البلاد أغلقت أبوابها في وجه التيارات الجديدة منذ استقرار الأندلسيين وتوقف الارتحال إلى المشرق ، وبانقطاع هذه العلاقة توقف المد الثقافي فالطالب المغربي الذي كان يبحث عن المعرفة في كل أجزاء العالم الإسلامي ويختار بنفسه مواد الدراسة ، ويتصل بالعلماء للأخذ عنهم أصبح يكتفي بما هو موجود في المساجد والزوايا ويقتصر على الأخذ عن شيوخ تقليديين . وهكذا عكف الناس على المختصرات الفقهية يشرحونها ويعلقون عليها حتى أصبحت دراسة الكتب هي الهدف وضاع العلم واختفى الاجتهاد ، وقد تأثرت وضعية علم التفسير بالركود العلمي الشامل الذي أصيبت به البلاد ، على أن اليقظة العلمية التي سجلت بعد ذلك بفضل الاستقرار واستتباب الأمن جعلت الناس يعتنون بعلم التفسير فاهتموا على الأخص بتفسير أبي السعود الذي اشتهر وضرب به المثل في الإحاطة بعلوم الشريعة والتضلع فيها ، كما اشتهر في علم التفسير الشيخ أبو عبد الله محمد زيتونة الذي وضع حاشية على تفسير أبي السعود جاوز نصفه ستة عشر جزءا<sup>(٣)</sup> .

## ثانيا : الجزائر

### الدولة الزيانية (بنو عبد الواد ) في المغرب الأوسط (الجزائر) :

وأول حكامها هو يغمر إسن بن زياد بن ثابت ، وكان مطيعا للموحدين وعندما ضعفت دولتهم حملهم على التنازل له عن إمارة تلمسان وارتأى أبو الحسن السعيد خليفة الموحدين تأديب هذا الخارج عن سلطانه ، فخرج لقتاله فقتل خليفة الموحدين وثبتت أركان دولة بني عبد الواد وكانت هذه الدولة دائمة التعرض لمطامع الحفصيين وكذا للاصطدام بالمرينيين حكام المغرب الأقصى ، حتى تمكن الحفصيون من بسط نفوذهم على المغرب الأوسط كله كما سبق وكذا تمكن المرينيون من القضاء على الدولة الزيانية

(١) انظر : الحركة الأدبية في تونس ص ١٢ .

(٢) انظر : خير الدين باشا (للمنجي) ، خير الدين التونسي (للمحمد كرو) .

(٣) انظر : جامع الزيتونة ص ٢٩، ٣٢، ٣٤ .

باحتيالهم تلمسان كما سيأتي إلا أنها انبعثت من جديد على يد أبي حمو موسى الثاني سنة ٧٦٠هـ ، وظل أمرها قائما حتى كثر النزاع بين ملوكها وانتشرت الفوضى وانتهى الأمر باستيلاء الأتراك عليها عام ١٥٥٤م (١).

واستعد الأسبان لمهاجمة الجزائر فاحتلوا ميناء المرسى الكبير عند وهران ثم أسقطوا وهران ثم بجاية ثم شرشال وعنابة وذلك في أواخر الدولة الزيانية واضطر الجزائريون إلى عقد صلح مع الأسبان قضى بتسليم الأسبان جزيرة هامة بنوا فيها حصنا لهم هدد مدينة الجزائر نفسها سموه البيتون ، واضطرت عدة موانئ أخرى أن تعترف بسطان الأسبان الذين استولوا أيضا على طرابلس سنة ١٥١٥م وانحصرت مقاومة الجزائريين في العمليات البحرية ، وأثناء تنافس اثنين من بني زيان على السلطة في آخر عهد بني زيان استنجد أحدهما بالأسبان ١٥١٨م بتلمسان ، واستنجد الآخر ب(عروج) الذي كان قد أعلن نفسه سنة ١٥٠٤م أميرا على الجزائر بعد أن استطاع تثبيت سلطانه بها ثم شرع ييسط نفوذه على المناطق المجاورة حتى نجح في الاستيلاء على تلمسان وقضى على الأسرة الزيانية ، وتخوف الأسبان من انتصاراته المتتالية وتمكنوا من قتله بعد محاصرته في مدينة شورا سنة ٩٢٤هـ فتسلم أخوه خير الدين الملقب (بارباروس) أي ذي اللحية الشقراء الأمر من بعده فأعلن ولاءه للسلطان العثماني ، فأرسل له جيشا يشد من أزره ومنحه لقب (بيكلربك) ، وأصبح واليا من ولاية الأتراك واستطاع أن يطرد الأسبان من كثير من الثغور حتى من حصن البيتون ، وأصبحت الجزائر منذ ذلك الوقت ولاية عثمانية حتى سقطت في يد الفرنسيين سنة ١٨٣٠م (٢).

### حكم العثمانيين للجزائر وينقسم إلى ثلاثة أدوار :

#### دور الولاة الملقبين بيكلربك (يعني أمير الأمراء بالتركية) ١٥١٨-١٥٨٧م :

بدأ هذا الدور من ولاية خير الدين الذي حاول الأسبان التخلص منه عن طريق حملة نزلت في الجزائر ، فهزمتها هزيمة منكرة واستطاع تحقيق عدة انتصارات ، وتولى بعده شؤون الجزائر حسن أغا سنة ١٥٣٤م واستطاع رد حملة ملك أسبانيا على الجزائر ثم عين حسن باشا بن خير الدين واليا على الجزائر فحصن الجزائر واستولى على تلمسان ، ثم تولى الأمر صالح ريس الذي وجه ضربات قوية للأسبان وطردهم من بجاية ومن المهديّة ، ولما توفي عاد حسن باشا لولاية الجزائر فهاجم القوات المغربية التي كانت قد استولت على تلمسان ، ووصل إلى أبواب فاس ودبر لاغتيال الأمير المغربي أبو عبد الله محمد الشيخ الملقب بالمهدي ونجح في قتله ، ثم اتجه حسن باشا إلى الأسبان فهزمتهم في مستغانم واستدعاه السلطان العثماني في حصار

(١) ابن خلدون ١٦١/٧ .

(٢) انظر : صفحات من تاريخ مدن الجزائر ص ٤٢ وما بعدها<sup>٧</sup>، إتحاف أهل الزمان ٩/٢ وما بعدها ، تاريخ الجزائر الحديث ص ٢٦ .

مالطة ، وخلفه على الجزائر علي بن عبد الحق سنة ١٥٦٨م الذي اهتم بالأسطول واستطاع بسط النفوذ العثماني على تونس (١) .

### دور الباشوات (١٥٨٧م - ١٦٧١م) :

وكان الباشوات عبارة عن ولاية غرباء عن البلاد يحملون لقب باشا ترسلهم استامبول منذ عام ١٥٨٧م ويحكم الباشا لمدة ثلاث سنوات ، وكانوا يشترطون المنصب بالمال ويحرصون بالتالي على جمعه ، وحدث في عهدهم أمر عظيم من الفوضى والحروب بين الجنود والقبائل أدى إلى تولي رؤساء البحرية السلطة وهو حكم الدايات .

### دور الدايات ١٦٧١م - ١٨٣٠م : ( الدايات لفظ تركي معناه الخال )

انتقلت السلطة إلى الدايات وهم رؤساء البحرية ، وقد كانت بيده السلطة الحقيقية فنصبوا واحدا منهم على أن تبقى له السلطة مدى الحياة ولما رأَت السلطة العثمانية أنها عاجزة عن فرض إرادتها على الجزائر كفت عن إرسال الباشوات ، ومنحت الدايات لقب باشا باعتباره ممثلا لسلطتها وبقي الأمر على ذلك حتى الاحتلال الفرنسي (٢) .

وقد تقدم الكلام عن الحالة العلمية في العهد التركي عند حديثنا عن تونس .

### ثالثا : المغرب

#### الدولة المرينية (دولة بني عبد الحق) في المغرب الأقصى (المغرب) ٦٦٨هـ - ٨٦٩هـ (٣) :

المرينيون فخذ من قبيلة زناتة العربية ، وكان عبد الحق الذي نسبت إليه الدولة قد قام بأمر بني مرين ووجرت بينه وبين عرب رباح حروب ، وكان أصل ظهورهم بالمغرب في مدة أبي يعقوب يوسف بن الناصر من الموحدين بعد موت محيو أبي خالد والد عبد الحق متأثرا بجراحه مع أمير المؤمنين المنصور يعقوب من الموحدين في غزوة الأرك بعد أن عقد له على من في عسكره من زناته ، وقد انتهزوا فرصة ضعف وانحلال

(١) انظر : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ص ٤٤-٩١، الجزائر العربية ص ٥٣-٥٥ .

(٢) انظر : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ١٠١-١٠٦ .

(٣) انظر : روض القرطاس ١/٢٧٨-٢٨٣ ، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية (كاملا)، الحلل الموشية ١٧٢-١٧٥ ، الفكر السامي ١٧٣/٣ .

دولة الموحدين فنازعوهم الأمر في المغرب وقامت بين الأمير عبد الحق بن محيو وبين الموحدين معارك قتل الأمير في إحداها ( ) .<sup>٢</sup>

بدأت دولة بني عبد الحق باستيلاء أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق على مراكش سنة ٦٦٨هـ لما أته البيعة من أهلها إلا أنه تحول عنها إلى فاس وصيرها دار الخلافة ، ثم زحف على تلمسان سنة ٦٧٠هـ ، وأجبر ملوكها بني زيان على الصلح وغزا سجلماسة .

وولي الإمارة قبله إخوته الثلاثة أبو سعيد عثمان الذي تقدم أميراً على بني مرين ، فلما قتل اجتمع أشياخهم على أخيه أبي معرف محمد فلم يزل يحارب الموحدين حتى قتل في حرب معهم سنة ٦٤٢هـ ، ثم ولي بعده أخوه أبو يحيى فجمع أشياخ بني مرين وقسم عليهم ما كان بيده من المغرب ثم مرض بفاس ومات سنة ٦٥٦هـ .

ثم تولى الحكم في بني عبد الحق إلى أن تولى أبو الحسن علي بن عثمان المنصور بالله سنة ٧٣١هـ الذي استطاع أن يخضع تلمسان نهائياً وانتصر على ابن تاشفين الزياني ، وأنهى دولة بني زيان ثم نجح في دخول تونس سنة ٧٤٨هـ ، وكانت تشكو آنذاك من الفوضى والاضطراب فأصبح أبو الحسن ملك المغرب على الاطلاق ولكنه اضطر إلى الجلاء عن إفريقية بسبب ثورة قامت فيها وواجه أسطوله المغربي ربح شديدة غرق فيها كثير من سفنه وماينيف عن أربعمئة من أعلام المغرب الممتازين الذين كانوا بصحبته .

وكان له في عصره سفارات مع حكام فارس وسلطان مصر والشام والحجاز محمد بن قلاوون ومع ملك مالي وغيره من ملوك السودان ، واشتهر عهده بالأعمال العمرانية ، فقد شيد عددا كبيرا من المدارس وأجرى المرتبات على الطلبة والأساتذة ثم نازعه ابنه أبو غنان السلطة فتنازل له عنها سنة ٧٥١هـ فاستعاد نفوذ دولة بني مرين على المغربين الأوسط والأدنى ( ) .<sup>٢</sup>

ثم تولى بعده ابنه أبو زيان محمد بن أبي عنان الذي خلع وخنق ، ثم أخوه أبو بكر الذي مات غريفا ثم تولى حكام الدولة المرينية ابتداء من إبراهيم بن علي الذي تولى سنة ٧٦٠هـ إلى عبد الحق بن أبي سعيد آخرهم الذي تولى سنة ٨٣١هـ ، فوصلوا إلى أربعة عشر حاكما خلال سبعين عاما ، منهم من كانت مدة حكمه عشرة أيام فقط ! ( ) . وقد نقض المرينيون ماأحياء الموحدون من الاجتهاد وأعادوا نشر المذهب المالكي . ( )<sup>٢</sup>

( ) المغرب العربي الكبير ص ٤٩ .<sup>٢</sup>

( ) انظر : روض القرطاس / ١ / ٢٧٩، ٢٧٨ ، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية (كاملا) ، الحلل الموشية ص ١٧١<sup>٢</sup>

( ) انظر المغرب العربي الكبير ٤٦٤-٤٦٣ .<sup>٢</sup>

( ) انظر الفكر السامي ١٧٣/٣<sup>٢</sup>

وراجت دراسة التفسير في الصقع السوسي رواجاً كبيراً وذلك لحاجتهم إلى تفهم كلام الله نظراً لأن لغتهم ليست بعربية ، ونبع من علماء التفسير أبو يحيى الكرسفي من أهل القرن السابع وهو متخرج من الأندلس ت ٦٨٣ هـ . ( )

## الوطاسيون ٨٧٦هـ والسعديون ٩١٥هـ في المغرب ( ) :

في عام ٨٥٤ هـ ، تحركت من ميناء لشبونة قوة برتغالية ضخمة على ظهر أسطول مكونة من ٢٤٠ سفينة تحمل حقداً دفيناً على المسلمين ، بعد أن استطاعت إخراجهم من أرضها إلى ميناء سبتة المغربي الذي فوجئ بهذا الغزو المفاجئ فسقط صريعاً إذ لم تستطع الدولة المرينية أن تواجه هذا الخطر ، لأنها كانت تحتضر ، ثم اتجهوا بعد أن ثبتوا أقدامهم في سبتة إلى طنجة سنة ١٤٣٧ م ، فنجح الوصي على الملك أبو زكريا يحيى الوطاسي في أواخر العهد المريني من استنفار الناس للدفاع عنها وتمكن المسلمون من هزيمتهم ( ) . ولما تنازع أفراد البيت المريني السلطة ضعفت الدولة واستبد الحجاب والوزراء من بني وطاس بالأمر بعد أن استقلت جهات برمتها عن حكمهم عقب وفاة عبد الحق آخر ملوك بني مرين سنة ٨٦٩ هـ ، وفي عام ٨٧٦ هـ استولى أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي على فاس وظل أميراً لها حتى خلفه ابنه أبو عبد الله الملقب بالبرتغالي سنة ٩١٠ هـ .

وبعد أن سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م في يد الأتراك العثمانيين المسلمين هاج الصليبيون في العالم بأسره وتحوفوا قوة المسلمين ، ومنهم ملك البرتغال آنذاك الفونس الخامس الذي كون جيشاً للاستيلاء على ميناء القصر الصغير الواقع بين سبتة وطنجة تمهيداً لاحتلال طنجة ، ثم قام بعدة محاولات لاحتلال طنجة ففشل إلا أنه بعد ذلك وبسبب الفوضى الداخلية سقطت طنجة بعد سقوط أصيلا ، واتجهت الأنظار البرتغالية للوصول إلى مطامعها عن طريق استمالة رؤساء القبائل فاستطاعت القوات البرتغالية احتلال العديد من الموانئ المغربية ، وفرض حمايتها عليها مثل أسفر والصويرة وأكادير وماسة وأزمور ثم حاول البرتغال توجيه ضربة قوية لمراكش ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً أمام السعديين ، تبعثها هزيمة أخرى في المعمورة أمام الوطاسيين في آخر دولتهم ونظراً لأطماع البرتغال في المناطق المكتشفة الجديدة في الكشوف الجغرافية وضعف الأوضاع المادية ، لم تستطع الصمود والبقاء في هذه الثغور فتم جلاؤهم منها وآلت طنجة وسبتة ومزاكان في نهاية أمرهم للأسبان ( ) .

( ) انظر : سوس العالمة ص ٣٤ ، الحضارة المغربية عبر التاريخ ١٩٠/٨ .

( ) انظر : تاريخ الدولة السعدية (كاملاً) ، المغرب عبر التاريخ ٢٢١/٣ - ٤٧٠ .

( ) انظر المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ص ٩١-٤٤ .

( ) انظر : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ٢٨-٣٢ .

ولما مات أبو عبدالله الذي خاض معارك كثيرة مع البرتغال خلفه أخوه أبو حسونة سنة ٩٣١ هـ الذي حدث في عهده نزاعات مع السعديين ، وبسبب هذه الاضطرابات والنزاعات بالإضافة إلى الأطماع الأجنبية خلت تلك الحقبة من الآثار العمرانية وغيرها بل تعرضت البلاد للتخريب ، وكان قيام الدولة السعدية على يد أبي عبد الله القائم بأمر الله سنة ٩١٦ هـ سببا في تخلص المغرب من الأخطار التي واجهته بسبب الأطماع الأوربية من جهة ، ومن أطماع الأتراك العثمانيين الذين استولوا على الجزائر وتونس من ناحية أخرى (٢).

وقد بدأ نفوذ السعديين في بلاد درعه والسوس الأقصى ، وكان ظهورهم في وقت ضعفت فيه الدولة الوطاسية عن حماية الثغور العرصة لأطماع البرتغاليين والأسبان فالتف الناس حول أبي عبد الله محمد السعدي وبايعوه بالإمارة سنة ٩١٥ هـ ، واستعد لمقابلة البرتغال فأدركته الوفاة سنة ٩٢٣ هـ ، وتولى ابنه أبو العباس أحمد الأعرج الذي أحرز انتصارات عظيمة على المستعمرين وبايعه أهل مراكش فحاربه الوطاسيون خشية على فاس ودارت بينهما معارك متعددة .

وكان أبو عبد الله محمد الشيخ شقيق أبي العباس الأعرج واليا من قبل أخيه على السوس حتى دخل الوشاة بينهما فتقاتلا وانفرد أبو عبد الله بالحكم ، وأودع أخاه وأولاده السجن سنة ٩٤٦ هـ (٣) . واستطاع أبو عبد الله محمد مواصلة الجهاد ضد البرتغال حتى اطمأن من ناحيتهم وتوجه إلى فاس ، فدخلها وقبض على الوطاسيين وأرسلهم إلى مراكش وفر أبو حسونة إلى الجزائر مستجيرا بالأتراك ، واتصل بالامبراطور الأسباني يستنجد به أيضا وازداد التوتر بين الأتراك والسعدي عندما استولى أبو عبد الله على تلمسان، فاستطاعوا أن يستعيدوها مرة ثانية ، وأمدوا أبا حسونة بجيش لمحاربة أبي عبد الله وبعد معارك طاحنة استطاع الدخول إلى فاس إلا أن أبا عبد الله الشيخ استنفر قبائل السوس ، واستطاع قتل أبي حسونة واستعادة فاس .

وبقيت العلاقات متوترة بين المغرب والخلافة العثمانية حتى تمكن السلطان العثماني من دس فرقة من الجنود الأتراك إلى جيش أبي عبد الله ، فاستطاعوا قتله وحمل رأسه إليه سنة ٩٦٤ هـ (٤) .

ثم بويع لابنه محمد عبد الله الغالب بالله الذي انتصر على جيش الأتراك في محاولة للقرب من فاس ، ولما توفي الغالب بالله بويع لابنه أبي عبد الله المتوكل على الله إلا أن عمه أبا مروان عبد الملك المعتصم بالله استطاع انتزاع الملك منه بمعاونة الأتراك ودخل فاسا سنة ٩٨٣ هـ بمعاونة الجيش التركي ، ثم دخل مراكش

(٢) انظر المرجع السابق . ٥

(٣) الاستقصاء ١٧/٥ ، ١٨ . ٦

(٤) انظر : الاستقصاء ١٥/٥ ، ٣٢ ، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي (بدون أرقام) . ٢

بعدها ، إلا أن عبد الله المتوكل حاول العودة إلى مراكش فلم يتمكن ، ففر إلى طنجة واستنجد بالأسبان فلم ينجده فاستنجد بالبرتغال ، فكانت موقعة وادي المخازن بين البرتغال والمسلمين المغاربة سنة ٩٨٦ هـ انتهت بنصر حاسم للمسلمين وقتل قائد البرتغال والخائن المتوكل ، وتوفي أبو مروان<sup>(٨)</sup> ، فبويغ لخليفته أبي العباس أحمد المنصور الذي قام بتحسين العلاقات مع السلطان العثماني بعد أن حاول الوشاة إفسادها حتى اطمئن تماما من جانبهم وشرع في غزو السودان ، فاستولى عليها استيلاء كليا وأصبح التبر يحمل إليه بما يجير الناظرين ولهذا لقب بالذهبي .

واتسم عهده بإصلاحات عظيمة فنظم الجيش وأرسى النظم الإدارية ، وقام بإنشاءات معمارية عظيمة منها قصر البديع بمراكش وساد العدل في وقته حتى ذكر القشتالي أنه لم ير من ملوك العصر أعدل منه ، وما في الأرض مملكة تسير على قوانين الشرع ومنهاج السنة أحسن من مملكته ، وعرف المنصور بتشجيعه للفقهاء والعلماء وكان يجمعهم للمذاكرة بمراكش وفاس ، فكان الحديث يدور حول أمهات الكتب في التفسير والفقه وعلم المنطق وغير ذلك من العلوم ، فقد كان هو نفسه على علم وله منظومات وأسفار رائعة<sup>(٩)</sup> .

ولما وافت المنية المنصور سنة ١٠١٢ هـ بايع أهل فاس ولده زيدان ، وامتنع أهل مراكش من مبايعته وبايعوا أخاه أبا فارس الوالي عليهم من قبل أبيه ، فقامت سلسلة حروب بين الأخوين ودخل فيها أيضا أخوهم المأمون ، وانتهت الصراعات بقتل أبي فارس ، ثم قتل المأمون واستقل زيدان بالأمر بمراكش حتى مات سنة ١٠٣٧ هـ ، وتوالى الحكم في ذريته بمقتل الواحد تلو الآخر حتى انقرض أمر السعديين سنة ١٠٦٩ هـ ، واستبد عرب الشبانات بالأمر في مراكش ، وحدث أثناء تلك الفترة استعانة المأمون بالأسبان على أخويه مقابل استيلائهم على العرائش<sup>(١٠)</sup> مما أدى إلى تمادي أسبانيا في الاعتداءات على الثغور ، كما تشجع البرتغال في الظهور على الساحة مرة أخرى بسبب هذه الاضطرابات ، هذا بالإضافة إلى ظهور انقسامات داخلية منها ظهور ( الدلائيين ) على المسرح السياسي بعد أن كانوا بالزاوية الدلائية كمرکز ديني للعبادة والتفقه ، وكذا ظهور حركة أبي العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي الصوفي الذي استولى على درعة ، وقصد مراكش ففتحها وطرده زيدان لكنه قتل وانتهت حركته سنة ١٠٢٢ هـ ، وظهر أيضا في تلك الآونة شخصية الفقيه العالم محمد بن أبي العباس أحمد الزياني الشهير بالعيشي الذي قاد الجهاد ضد الاستعمار البرتغالي وعينه السعديون على عمالة أزموور سنة ١٠٢٠ هـ ، واستعمل البرتغال الوشاية للإيقاع بين العباسي

(٨) انظر : موقعة وادي المخازن الحاسمة ص ٢٢٢ ، الاستقصا ٨٦/٥ .

(٩) انظر : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ص ٦٩-٣٠١ ، الاستقصا ٩٥/٥ وما بعدها .

(١٠) الاستقصاء ٢٠، ٢١/٦ .

والسلطان زيدان فأرسل سرية إلى مزموور للقبض عليه وقتله لكنه نجح في الهروب إلى مسقط رأسه سلا واستمر في الجهاد ضد البرتغال والأسبان حتى وافته المنية سنة ١٠٥١هـ رغم الوشايات التي كثرت حوله لايقاع السلطان به ، وذلك بقتله غيلة من أتباع الدلائيين الذين فسدت العلاقة بينه وبينهم ووصلت إلى القتال ، وبقتله خلا الجو للدلائيين فاستولوا على فاس وسلا وتطوان (١).

وكان من مزايا عصر السعديين الاعتناء بتفسير القرآن ، وتعدد المفسرين ومن بينهم الحاج محمد الشنقيطي (ت ٩٦٣هـ) صاحب اللباب في حل مشكلات الكتاب ، وعبد الرحمن بن يوسف القصري العارف (ت ١٠٣٦هـ) وله حاشية على تفسير الجلالين ، وعلي بن الواحد الأنصاري السجلماسي (ت ١٠٥٤هـ) ، كما نسب إلى الملك زيدان ابن المنصور الذهبي (١٠٣٧هـ) حاشية على تفسير الزمخشري ، ويعد من كبار المفسرين أيضا بلقاسم بن إبراهيم الدكالي المشترائي (ت ٩٧٨هـ) ، وهو من أئمة القراءات السبع (٢).

#### الدولة العلوية (من سنة ١٠٥٠هـ إلى الآن) :

بدأ تأسيس هذه الدولة على يد المولى محمد بن الشريف الذي ينتسب إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حين بايعه أهل سجلماسة (٣) ، ثم استيلائه على درعة وغيرها، ثم اصطدامه بالدلائيين في وقعة القاعة ، التي انتصر فيها الدلائيون وانتهت بالصلح بين الطرفين ، ثم نازعه أخوه المولى الرشيد وقاتله حتى قتل سنة ١٠٧٥هـ، وتولى المولى الرشيد ، فدخل فاسا ودارت بينه وبين الدلائيين معركة بطن الرمان ، التي قضى فيها عليهم ودخل مراكش ، ثم بلاد السوس وحقق وحدة المغرب السياسية واتجه إلى الإصلاح ، فنظم الجيش ، وفي عهده استأنفت الحركة العلمية والأدبية سيرها وكان ذا اهتمام بالعلم ويحضر بنفسه مجالسه بالقرويين ويزور العلماء في دورهم ، وأمر ببناء مدرسة في مراكش وشرع في أخري بفاس واهتم بالعمران أيضا (٤) ، وبعد وفاته تولى أخوه المولى إسماعيل سنة ١٠٨٢هـ ، فواجه عدة ثورات داخلية منها مع ابن أخيه ومنها مع قائد الجيش بفاس ومنها مع بعض الدلائيين ومنها مع إخوته الثلاثة حين خرجوا عليه ، واتخذ المولى إسماعيل مكناسة الزيتون عاصمة لملكه ، واهتم بالعمارة والتنسيق ، ولما استقر له الأمر اهتم بإقرار الأمن الداخلي وتأمين الحدود ونزع السلاح من الأفراد والقبائل ، وجهز جيشا قويا ضخما استغل فيه العبيد السنغال ، واستطاع تحرير بعض الثغور كطنجة والعرائش .

(١) انظر : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي ، محمد العياشي وجهاده ضد الأسبان والبرتغال .

(٢) انظر : سلوة الأنفاس ١٢٨/٢ ، المغرب عبر التاريخ ٦٠/٢ .

(٣) الاستقصا ٣،٤،٥/٧ .

(٤) انظر : المغرب العربي ص ١٤٠ ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ص ٢٧ .

وكان للعلم والعلماء منزلة خاصة عنده ، فكان يكرمهم ويجزل لهم العطاء وشيد وجدد كثيرا من المساجد والمدارس ( ) .

ثم توفي سنة ١١٥٩هـ فحدث بعده اضطرابات شديدة ونهب من قوة الجيش الذي كان قد أسسه ، وتدخل الجيش في شئون الدولة حتى عام ١١٧١هـ، ثم تولى المولى محمد بن عبدالله بعد وفاة والده فحاول إصلاح الحالة الاقتصادية ، واستطاع القضاء على مثيري الفتنة واهتم بالثغور والجيش والأسطول المغربي اهتماما عظيما ، واستطاع مجابهة الأساطيل الأوربية وهزيمتها وتحليص بعض الثغور، وعقد مع الدول الأوربية والولايات المتحدة معاهدات تجارية وكذا مع الدانمرك والسويد ، ولم يكن حاكما سياسيا وقائدا حربيا فحسب لكنه اشتهر بحبه للعلم والعلماء ، فقد كان يقرهم من مجلسه ، وطلب من المشرق الكثير من كتب الحديث التي لم تكن بالمغرب ، وكان يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع الفقهاء والعلماء للمذاكرة ونهى طلبة العلم عن الاشتغال بالمختصرات دون أمهات الكتب ، وطالب بالرجوع إلى الكتاب والسنة في الأحكام ، وأوقف الكثير على الحرمين وطلاب العلم قام بتحسيس الكتب العلمية كما اهتم بالمساجد والمدارس وغيرها ، وبعد وفاة المولى محمد تولى ابنه المولى يزيد سنة ١٢٠٤هـ ، الذي خلع القبائل بيعته وبايعوا أخاه هشام فتقاتلا وقتل المولى يزيد ، وتفرقت الكلمة بالمغرب على أبناء المولى محمد ، حتى غلب نفوذ المولى سليمان بن محمد وتمت له البيعة العامة سنة ١٢٠٦هـ ، وكان قد بايعه أهل فاس وأعمالها ، وكان مشغلا بالتقوى والعلم ولم تتم بيعته بالطعن والقتل وإنما بضعف إخوته ، وكان مائلا للتسامح والتقشف في الحياة والزهد في الدنيا ومنها الحكم ، كما كان يحيي ليالي رمضان بمشايع القراءة وأعيان العلماء ينتقيهم لسرد الحديث وتفهمه ، ويشاركهم بغزارة علمه ، ويعظم العلماء ويرفع مقامهم ويجري عليهم الأرزاق ، حتى تنافس الناس في أيامه على اقتناء العلم لاعتزاز أهله ، واهتم كذلك بالعمران وسلك سياسة المسالمة مع الدول المجاورة ، وكان متفقا في وجهة النظر مع الدعوة الوهابية بالجزيرة العربية، وتمت بينهما مراسلة ثم قامت في أواخر عهده فتنة بين قبائل البربر ، فعمت القلاقل المغرب كله واشتد المرض بالمولى سليمان فعهد لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام لما اشتهر به من العدل والأمانة ، وترك أولاده وإخوته ( ) .

ولما تولى المولى عبدالرحمن بن هشام سنة ١٢٣٨هـ ، أخذ في التجول على القبائل واستطاع إخضاع الأقاليم التي زارها ، وتمت في عهده إصلاحات كثيرة في العمران وفي الأسطول البحري ، ولما استولى الفرنسيون

( ) انظر :روضة التعريف بمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف ص ٦٠، ٥٩، ٥٨، ٤٧ ، الاستقصا ٧/٥٨-٧٢ .

( ) انظر الاستقصا ٨/١١٢، ١١٦، ١٠٩، ٨٦ .

على الجزائر سنة ١٢٤٦ هـ طلب أهل تلمسان الانضمام إلى المولى عبد الرحمن ، فقبل انضمامهم إليه إلا أنه اضطر لسحب جيوشه بعد دخول الفرنسيين وهران وتمرد بعض بقايا الأتراك عليه<sup>(١)</sup> .  
وتعلل الفرنسيون بأن الأمير عبد القادر الجزائري يجد الحماية له من قبل المغرب كلما فر إليها ، فاقترحوا وجدة ، ثم انتصروا على جيش المولى عبد الرحمن في وقعة أسلي التي استولوا فيها على طنجة سنة ١٨٤٤ ، وأسفرت المفاوضات بعدها عن توقيع معاهدة طنجة التي ضغطوا فيها على الجانب المغربي<sup>(٢)</sup> .  
ثم توفي المولى عبد الرحمن سنة ١٢٧٦ هـ ، فتولى بعده المولى محمد بن عبد الرحمن إذ كان ينوب عن أبيه في حياته ، واشتهر بالتقوى ومراعاة الشرع في تصرفاته واستتب الأمن في عهده وهدأت الأطماع الأجنبية شيئاً ما ، فاهتم بالعمران ، وبنى العديد من المساجد منها جامع السنة وجامع أهل فاس بالرباط والمسجد الجامع بالسوق بالدار البيضاء ، واهتم بإعداد الجيش الذي تبين ضعفه في وقعة أسلي ، وفي عهده هاجم الأسبان تطوان وصمد أمامهم الجيش المغربي ، إلا أنه أخيراً تقهقر فدخلوها سنة ١٢٧٦ هـ ، وتدخلت بريطانيا للوصول إلى اتفاق بين البلدين فتم ذلك بتنازلات أيضاً من المغرب ، ثم بأخذ قرض بفوائد من بريطانيا أدى إلى فرض رقابة من قبلها على الموانئ المغربية<sup>(٣)</sup> .

ولما توفي المولى محمد بن عبد الرحمن بويج لابنه المولى حسن بن محمد سنة ١٢٩٠ هـ ، فقام بعدة رحلات لزيارة ثغور المغرب وعابن التحصينات الدفاعية فيها ، وتفقد بلاد السوس إلا أن أسبانيا عمدت إلى المنطقة المواجهة لجزر الكناريا ، التي سبق وأن احتلتها فرفعت عليها علمها وأطلقت عليها اسم ريودي أورو يعني نهر الذهب فاحتج المولى حسن على ذلك وعمد إلى تحصين الثغور ومراقبة سائر جهات القطر السوسي<sup>(٤)</sup> .

وقد شهدت فترة حكم المولى حسن تنافسا دوليا شديدا بين الدول الأجنبية حول النفوذ في المغرب والحصول على أقرب امتيازات ، وتمكنت الدول الأوروبية من فرض معاهدة على المغرب سنة ١٨٦٢ هـ لامتيازات رعاياها طالب بعدها المولى حسن بإلغاء هذه الامتيازات التي لا مبرر لها ، فعقد مؤتمر بمديرد لدول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بالإضافة للمغرب وخرجوا بقرارات لصالحهم وحاول المولى حسن أن يظل المغرب محتفظا باستقلاله رغم الضغوط الشديدة عليه<sup>(٥)</sup> .

(١) الاستقصا ١٢/٩ . ٧

(٢) الاستقصا ٤٩/٩-٥٣ ، وأنظر : تحفة الزائر ١/٢٩٠-٢٩١ . ٢

(٣) انظر الاستقصا ١٠١/٩-١٢٤ . ٢

(٤) انظر الاستقصا ١٤٩/٩ وما بعدها . ٣

(٥) المغرب العربي ص ١٣٥-١٣٦ . ٣

ولما توفي السلطان الحسن بويح لابنه سنة ١٣١٢هـ المولى عبد العزيز الذي لم يتجاوز عمره ١٣ سنة ، ولما أخذت البيعة له استولى الوزير أحمد علي على مقاليد الأمور، واستطاع أن يقف في وجه الأطماع الأجنبية ويحاول استرجاع سلطان المغرب ، ولما توفي سنة ١٨٩٨م لم يستطع المولى عبد العزيز الوقوف في وجه التيارات الداخلية بالإضافة إلى الخارجية حيث اجتاحت المغرب عدة ثورات بسبب الفوضى الاقتصادية والديون ، وبدأت فرنسا عقد اتفاقيات مع الدول الأجنبية ذات المطامع في المغرب تمهيدا لما تنويه للمغرب فعقدت اتفاقية مع إيطاليا ، ثم مع إنجلترا ثم مع أسبانيا، ثم عقدت اتفاقية الجزيرة سنة ١٩٠٦م بين الدول الموقعة على اتفاقية مدريد سنة ١٨٨٠م ، التي دعمت نفوذ فرنسا وأسبانيا في المغرب ومنعت دخول السلاح للمغرب بحجة منع القبائل من التسلح حفاظا على استتباب الأمن ، وكان هذا الفعل تمهيدا لفرض الحماية الفرنسية على المغرب (١).

وانتشر إعراب القرآن في تلك الحقبة من ناحية الصقع السوسي وألف فيه أبو زيد الجشتيمي (ت ١٢٦٩هـ) كتاب إعراب القرآن في مجلدين ، وكان من عادة الطلبة أن يخلقوا حول الأستاذ ويعربوا مقدار الوقت الأول من الحزب الراتب مع الاستدلال من المتون في تطبيق القواعد (٢).

**المطلب الثالث : الأوضاع في المنطقة منذ الاحتلال الفرنسي وحتى الاستقلال وتأثير ذلك على الناحية العلمية :**

**أولا : تونس**

**الاحتلال الفرنسي لتونس وحتى الاستقلال (١٩٥٦م) :**

وفي عهد محمد الصادق باي تذرعت فرنسا أيضا بذريعة اعتداء بعض القبائل التونسية على الحدود الجزائرية ، فأرسلت حملة ادعت أنها لتأديب هذه القبائل سنة ١٨٨١م ، وتمكنت من احتلال بعض المناطق حتى وصلوا العاصمة وأجبروا الباي على توقيع معاهدة سلبت تونس كل مقومات الدولة المستقلة وهي معاهدة باردو (٣).

(١) انظر التنافس الاستعماري الأوروبي في المغرب ص ٥٢- ١٠٩ .

(٢) انظر : سوس العالمة ص ٤٤ ، الحضارة المغربية عبر التاريخ ١/١٩٠ .

(٣) انظر : انتصاب الحماية في تونس ، صراع مع الحماية (كاملين) .

(٤) انظر : صراع مع الحماية ص ٧٦ ، خلاصة تاريخ تونس ص ٢١٤ .

ثم تلت تلك المعاهدة معاهدة أخرى عقدت مع علي باي خليفة الصادق بعد وفاته في سنة ١٨٨٣م وهي معاهدة المرسى وبالمعاهدتين وتفسيرهما توسعت فرنسا في بسط نفوذها على تونس مما أثار روح الثورة والدعوة للكفاح المسلح ضد المستعمر، وكان من الثوار في تلك الحقبة علي بن خليفة في قابس وعدة قواد في مناطق مختلفة مثل : صفاقس والقيروان وكلها لم تستطع مقاومة القوات الفرنسية ، حيث لا تكافؤ لا في العدد ولا في العدة ، وتم فرض الحماية على تونس (٦).

وفي هذه الآونة قام الفرنسيون بتعبيد الطرق لتسهيل انتقلهم على حساب الأهالي، واتجهوا في التعليم إلى مسح الهوية الإسلامية ، فقد كان التعليم في الأنحاء التونسية عن طريق الكتاتيب التي تعلم القرآن والكتابة، ثم ينتقل الطالب الذي لديه استعداد إلى جامع الزيتونة يدرس العلوم العربية والفقهية ، ولما جاء الاحتلال أسس المدارس الفرنسية العربية ، التي اهتمت بتدريس الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها مع تخصيص قسم لحفظ شيء من القرآن والمقصود الأول منها نشر اللغة الفرنسية ، ثم أحدثوا مدرسة ثانوية لأبناء الفرنسيين وبعد تحصيل شهادتها يطرق الطالب أبواب كليات فرنسا وبقي جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية يؤديان دورهما ، وأنشأ المسلمون مدارس ابتدائية عرفت بالقرآنية ، وتدخل المستعمر في جميع النواحي الاقتصادية في البلاد (٧).

وتوفي علي باي فخلفه ابنه محمد الهادي باي سنة ١٩٠٢م ، فلم يلبث أن توفي فخلفه ابن عمه محمد الناصر باي سنة ١٩٠٦م ، وفي عهده صدرت مجلة العقود والالتزامات ، كما احتلت إيطاليا طرابلس ، وقامت الحرب العالمية الأولى ، وفي أثنائها قامت ثورة خليفة بن عسكر ، فاستولى على بعض المناطق التي استعادها الفرنسيون بعد انقضاء الحرب ، ولما مات محمد الناصر باي خلفه ابن عمه محمد الحبيب باي سنة ١٩٢٢م ، فقام بعدة تنظيمات إدارية ثم خلفه ابن عمه أحمد الثاني بعد وفاته سنة ١٩٢٩م ، الذي تولى الأمر وتونس تعاني من أزمة اقتصادية أدت في النهاية إلى الثورات من الأهالي واشتباكات مسلحة ازدادت توترا بعد فتح فرنسا باب التجنيس الذي رفضه الشعب التونسي (٨).

وقد اعتبرت هذه الحملة الفرنسية على تونس هي الحملة الصليبية التاسعة (٩) وبعدها حاولت فرنسا تجنيس المسلمين بالجنسية الفرنسية ، وانتشرت الفتاوى بردة من تجنيس بها وحدث بعض الاختلاف حول ردة المتجنس ، ودخل في تلك المسألة الشيخ الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة صاحب تفسير التحرير والتنوير فأفتى بجواز دفنه في مقابر المسلمين ورد عليه الرأي العام في تونس ، ووصل الأمر إلى استفتاء

(٦) انظر : صراع مع الحماية ص ١٨٥-٢٠٠ ، خلاصة تاريخ تونس ص ٢١٥ .

(٧) انظر تاريخ تونس ص ٩٩-١٣٨ .

(٨) انظر خلاصة تاريخ تونس ص ٢١٥-٢٤٢ .

(٩) انظر عن الحملات الثمانية السابقة ص (٨٧)

علماء مصر فأفتى فيها الشيخ يوسف الدجوي وغيره بتأييد ما عليه عامة الفقهاء من رده لما يترتب على تجنسه من الرضا بقوانين الكفر اختيارا واستندوا في الفتاوى إلى أدلة كثيرة من القرآن الكريم<sup>(١)</sup>.

ثم قامت الحرب العالمية الثانية وتوفي أحمد باي ، وتولى بعده محمد المنصف باي ابن الناصر باي سنة ١٩٤٢م ، وفي عهده قام على التراب التونسي معارك مدمرة بين الحلفاء (انكلترا وأمريكا وفرنسا ) وبين جنود المحور (ألمانيا وإيطاليا ) عانت منها تونس معاناة شديدة وتضررت البلاد أضرارا فادحة وأسفرت الحرب عن طرد قوات جنود المحور بعد هزيمتهم وعزلت قوات الحلفاء محمد المنصف باي بسبب وشايات ضده وتولى بعده محمد الأمين بن محمد الحبيب باي سنة ١٩٤٣م ، الذي كان عهده مسرحا لتنكيل الفرنسيين بمن توهموا فيه إعانة دول المحور ، وامتألت السجون وتعددت الإعدام الجماعي ، وفي عام ١٩٤٥م خرج الحبيب بورقيبة وهو من زعماء الحركة الوطنية إلى الشرق ثم إلى الغرب معرفا بالقضية التونسية وعقد الشعب مؤتمر ليلة القدر سنة ١٩٤٦م ، وتقرر فيه مبدأ المطالبة بالاستقلال وانتهى الأمر بالقبض على بورقيبة وزملائه سنة ١٩٥٢م ، وانبعثت الثورة المسلحة التي عمت البلاد والتي تنوعت فيها أساليب الإجرام والإرهاب من الجانب الفرنسي حتى صارت الحياة في البلاد جحيما لا يطاق حتى اضطرت حكومة فرنسا إلى وضع حد لهذه الحالة ، فأعلنت مبدأ الاستقلال وتوالت الاتفاقيات حتى تقرر منح الاستقلال سنة ١٩٥٦م<sup>(٢)</sup>.

وقد ظهر في تلك الفترة من أعلام المنطقة في التفسير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي أُلّف تفسيره التحرير والتنوير وكان له دور بارز في الإصلاح العلمي والاجتماعي ، وقام برحلات علمية إلى المشرق وأوروبا واستنبول<sup>(٣)</sup>.

## ثانيا : الجزائر

### الاحتلال الفرنسي للجزائر وحتى الاستقلال<sup>(١)</sup> سنة ١٩٦٢م :

تذرعت فرنسا بمسألة القرصنة البحرية التي كان يقوم بها المسلمون في البحر المتوسط وبما حصل بين الداوي حسن وبين القنصل الفرنسي أثناء استفسار الداوي عن مماثلة فرنسا في تسديد الديون المستحقة عليها للجزائر مقابل القمح الذي أنقذت به فرنسا وقت حاجتها الشديدة له ، فقد وجه الداوي للقنصل ثلاث

(١) انظر : الحملة الصليبية على الإسلام في شمال إفريقيا (كاملا) .<sup>٣</sup>

(٢) انظر تاريخ تونس ص ١٣٨ ، خلاصة تاريخ تونس ص ٢٤٢ .<sup>٣</sup>

(٣) انظر ترجمته في أهل المنطقة برقم ٢١٧ .<sup>٣</sup>

(٤) انظر : الحركة الوطنية في الجزائر ، تحفة الزائر في مآثر الأمير لعبد القادر وأخبار الجزائر (كاملين) .

ضربات من المروحة التي كانت بيده وأمره بالانصراف وبناء على هذين الأمرين اللذين يخطفي وراءهما كثير من المطامع الحقيقية أرسلت فرنسا حملة بحرية حاصرت الجزائر للوصول إلى حل مجحف بالجزائر فلم يقبل الداوي ، وبقي الحصار ثلاث سنوات ، بعدها انطلقت حملة كبيرة سنة ١٨٣٠م من فرنسا لاحتلال الجزائر أسفرت عن استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر وفرض شروطهم على الداوي ثم حاولوا التوغل في البلاد فقبولوا بمقاومة شديدة منعتهم من التقدم (١).

واجتمع أصحاب الحل والعقد وقدموا عام ١٨٣٢م على الشريف محيي الدين شيخ الطريقة القادرية وطلبوا بيعته أو بيعة ولده ، ونظرا لكبر سنه فقد جعل الأمر لولده الذي لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره وهو الأمير عبد القادر الذي بدأ ينظم شئون إمارته ، واستطاع الأمير عبد القادر تحرير تلمسان وأن يفرض حصارا على الفرنسيين ، فتم توقيع اتفاق بين الطرفين كان من نتائجه أن استطاع الأمير عبد القادر فرض نفوذه على غرب الجزائر مما أثار مخاوف فرنسا فنقضت الاتفاق والتقت قواتها بقوات الأمير عبد القادر جهة وهران سنة ١٨٣٦م انتصرت فيها القوات المسلمة ، وتوالت اللقاءات الحربية بين قوات الفرنسيين من جهة وبين الأمير عبد القادر من جهة أخرى وكانت الحرب بينهما سجال أدت إلى صلح تافنا سنة ١٨٣٧م ، الذي مكن الأمير عبد القادر من السيطرة على مايقرب من ثلثي إقليم الجزائر ، واستطاع الفرنسيون القضاء على نفوذ أحمد باشا في الإقليم الشرقي من الجزائر واستتب لهم الأمر فيه سنة ١٨٤٧م ، وعمل الأمير عبد القادر على تنظيم بلاده إداريا ونظم جباية الزكاة والأعشار واهتم بتطبيق الشريعة إلى حد كبير بتعيين القضاة على المذهب المالكي كما عين علماء لتدريس فنون العلم المختلفة وأجرى لهم المرتبات وكان يخدم أهل العلم واستثناهم من جميع الضرائب واجتهد في جمع الكتب من كل جهة وشرع في تنظيم مكتبة في (تاكدمت) ، كما أنشأ المستشفيات ومنع استعمال الذهب والفضة للزينة ، ومنع التدخين وأمر بالصلوات الخمسة في المساجد ومن وجد في حانوته وقت الصلاة يجلد ، واتخذ دارا للشورى لإصدار الفتوى وأرسل بالأسئلة والاستفسارات للعلماء والفقهاء ، ومن ذلك رسالته لعلماء فاس بأسئلة تتعلق بما عرض له في إمارته فأجابوا عليها ، كما أولى الجيش عناية خاصة لمعرفة بأن الهدنة بينه وبين الفرنسيين وقتية ، وفعلا تذرعت فرنسا بوجود اختلاف بين النص العربي والفرنسي في معاهدة تافنا وطالبت بتعديله ، ولما لم يتمكن الطرفان من الوصول لحل نقضت فرنسا المعاهدة ، وبدأت المعارك بين الطرفين واستخدمت فرنسا حرب العصابات والقضاء على الأخضر واليابس حتى اضطر الأمير عبد القادر إلى الفرار إلى المغرب بعد أن مني بهزائم متكررة حيث كان المولى عبدالرحمن سلطان المغرب مؤيدا له ، واتجهت القوات الفرنسية إلى المغرب تذرعا بذلك وأسفر الأمر عن معاهدة طنجة سنة ١٨٤٤م ، التي قضت بعدم تقديم أي مساعدة للأمير عبد القادر لكنه حاول الاستمرار في كفاحه واستطاع أن يحرز بعض

(١) تاريخ الجزائر الحديث ص ١٥٨.

الانتصارات لكن لم يستطع مواصلة ذلك فاستسلم أخيرا للفرنسيين سنة ١٨٤٧م على أن يسمح له بالسفر إلى الاسكندرية أو عكا فطويت تلك الصفحة من الجهاد الجزائري (١).

وتعاقب على الجزائر عدد من الحكام الفرنسيين الذين كان همهم قمع الاضطرابات وحركات المقاومة ، التي ظهرت تحت قيادة أبطال جدد من المناطق المتعددة ومن القبائل ، ففي سنة ١٨٤٨م صدر قانون الضم من جمهورية فرنسا للجزائر لكي تصبح جزءا من الأراضي الفرنسية ، وبدأ بعده تشجيع الهجرة والاستيطان من قبل الفرنسيين ، وفي عهد نابليون الثالث سنة ١٨٦٥م فتح الباب للتجنيس بالجنسية الفرنسية بشرط التبعية لفرنسا في الأحوال المدنية يعني التنازل عن الشريعة الإسلامية، وبلغ الاستعمار ذروته في الفترة بين سنة ١٨٧٠-١٩١٤م حيث تمت سيطرة المستوطنين على ثروات البلاد وعلى إدارتها وتحطم الهيكل الاجتماعي للشعب الجزائري وتحول معظمهم إلى عمال الخدمة الاستعمارية ، وانتشر الجهل وأوشكت الثقافة العربية على الاندثار وشهدت الجزائر نوعا من التفرقة العنصرية ، وأخضعت جميع المحاكم الشرعية لوزارة العدل في باريس ثم للحاكم العام ، واعتبرت جامعة الجزائر التي أسست في أوائل القرن جامعة فرنسية بحجة للمستوطنين فقط ، وقررت الخدمة العسكرية الإجبارية على الجزائريين بصفتهم رعايا فرنسيين وكثرت هجرة الجزائريين إلى الخارج (٢).

ونقلت الإدارة الفرنسية البرامج المتبعة في مدارس فرنسا دون تعديل مما جعل الدارسين بها ينقطعون تماما عن بيئتهم العربية الإسلامية ، إلا أنه لم تعدم الجزائر بعض دعاة الإصلاح ، وانقسم أنصار النهضة الجزائرية إلى فريقين : الأول ويسمى النخبة ويرى أن طريق الإصلاح الوحيد الأخذ بالأساليب الفرنسية في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، والثاني يمثل البقية الباقية من الذين استطاعوا المحافظة على الاتصال بالثقافة العربية الإسلامية ومنهم : ابن سماية الذي استضاف الشيخ محمد عبده عند مروره بالجزائر سنة ١٩٠٣ ، وابن موهوب مفتي قسنطينة الذي يرجح أن يكون هو الذي أثر في الشيخ عبدالحميد بن باديس مؤسس جماعة العلماء .

وقامت الحرب العالمية الأولى التي راح ضحيتها آلاف القتلى من المجندين الجزائريين الذين سقطوا صرعى أمام إخوانهم المسلمين من العثمانيين ، وكان لذلك أثر في الحركة الوطنية في الجزائر فأنشأ أصحاب فكرة اندماج الجزائر في فرنسا عدة تنظيمات للدعوة إلى فكرهم ، في حين أسس العلماء الجزائريون جمعية رسمية سنة ١٩٣١م ، وهي جماعة العلماء والتي نشأت للمحافظة على هوية الجزائر الدينية وتخليصه من البدع التي انتشرت عن طريق الطرق الصوفية ، واعتبرت لذلك حركة إصلاحية من حركات الإحياء السلفي التي

(١) انظر : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر !

(٢) المغرب العربي دراسة تاريخية ١٣٨-١٥٩ .

انتشرت في المشرق منذ قيام الحركة الوهابية في بلاد العرب ، وتمكن جماعة من أعضائها من الاتصال بالحركات الإصلاحية في المشرق ومنهم الطيب العقبي الذي تلقى تعليمه في الحجاز وعمل زمانا مع الملك عبد العزيز آل سعود ، وكان لكتابات الشيخ محمد عبده ورشيد رضا تأثير كبير في توجيه أفكارهم ، ورأس هذه الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس من خريجي جامع الزيتونة ومن أهالي قسنطينة فهاجمها الفرنسيون لما شعروا بازدياد نفوذها ، واتهموا أصحابها بأنهم ( وهايون خارجون عن الدين ) ، وحاولوا تقليص دورهم في الوعظ والإرشاد ، إلا أن الجماعة كان لها موقف صارم من الاندماج عن طريق إقناع الجزائريين بأن التخلي عن قوانين الأحوال الشخصية الإسلامي ردة عن الدين وبالتالي يحرم المتجنس من الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين ، وعن طريق إبراز ثقافة الجزائر التي هي ثقافة إسلامية عربية .

وأصدر العلماء مجلتيين باللغة العربية الشهاب ثم البصائر ، وأسسوا مدارس ابتدائية لتعليم القرآن ، وقاموا بإعطاء الدروس في مختلف المدن عن الشريعة وشجعوا الطلاب على الارتحال في طلب العلم إلى جامع الزيتونة والجامع الأزهر وغيرها .

ولكن الجماعة اضمحلّت بعد وفاة ابن باديس ، إلا أنه قد استمر أعضاؤها في الاتصال بالأحزاب الوطنية الأخرى بعد أن ابتعدت عن الاندماج .

ثم قامت حركة وطنية شيوعية سنة ١٩٢٥م بزعامة مصالي الحاج كان لها مطالب قومية متعددة ، وأصبح هذا هو الاتجاه الثالث للشعب الجزائري ، وعندما قامت الحرب العالمية الثانية استطاعت فرنسا إبعاد عنصر الجزائريين عن الأنشطة السياسية وقبضت على الزعماء ، وظهر في مقدمة الحركة الوطنية فرحات عباس الذي تحول إلى فكرة قيام حكومة جزائرية مستقلة يمكن ارتباطها بفرنسا ، ثم سرعان ماتقدم إلى السلطات الفرنسية والقيادة الأمريكية إلى المطالبة بدولة جزائرية مستقلة ورفض ذلك بالطبع، وبعد انتهاء الحرب وانتصر الحلفاء على ألمانيا سنة ١٩٤٥م نظم الجزائريون مظاهرة بهذه المناسبة أحفظت المستوطنين ورجال الشرطة وأدت إلى معركة حامية أسفرت عن مذبحه قسنطينة التي اشترك فيها الطيران والبحرية في دك القرى الجزائرية ، وبعد ذلك أخذت فرنسا في وضع حلول للمشكلة الجزائرية لم تعن شيئا ، وظهرت حركة الانتصار للحريات على مسرح المجاهمة للاستعمار ومن بين أعضائها أحمد بن بللا وأخذت في جمع الأسلحة ، واختلف الزعماء الشبان مع رئيس حزب الشعب مصالي الحاج فأخرجهم منه فكانوا النواة للثورة الجزائرية .

وكانت بداية أمر الثورة عن طريق هذا الحزب الذي تأثر مملوه في القاهرة المشتركون في تأسيس لجنة المغرب العربي هناك بآراء أمير الريف عبد الكريم الخطابي المجاهد المغربي ، والتي لاتؤمن بغير النضال المسلح وتم تشكيل تنظيم سري بدأ يمارس أعماله المسلحة ، سنة ١٩٤٩م بقيادة أحمد بن بللا الذي افتضح أمره وسجن ، ولكنه تمكن من الفرار من السجن إلى القاهرة وانضم إلى بعض أعضائه المقيمين هناك سنة ١٩٥٢م، واستطاعوا الحصول على تأييد مجلس قيادة الثورة المصري وقدم لهم الرئيس جمال عبدالناصر

المساعدات المالية والسلاح ، وتم تحديد موعد للقيام بالثورة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ م ، وفيها نسق جيش التحرير حوالي ثلاثين هجوما في مختلف أنحاء الجزائر على المعسكرات الفرنسية ومراكز الشرطة وتوالت العمليات العسكرية ، وحاولت فرنسا مجابهة الثورة بمسالك شتى ، حتى أصبحت المسألة الجزائرية مثار انقسام شديد في الرأي الفرنسي ، فبدأت المفاوضات مع أعضاء الجبهة ، وعقد الاتفاقيات إلى أن أعلن الجنرال ديغول استقلال الجزائر في يوليو سنة ١٩٦٢ م ، بعد اتفاقيات ايفيان<sup>(٧)</sup> .

### ثالثا : المغرب

#### الاحتلال الفرنسي للمغرب وحتى الاستقلال<sup>(٨)</sup> سنة ١٩٥٦ هـ :

في سنة ١٩٠٧ م تذرعت فرنسا بقتل أحد المبشرين في مراكش فاحتلت وجدة وأعلنت أنه احتلال مؤقت لحين الاستجابة لمطالبها ، ثم وقعت في نفس العام اصطدامات في الدار البيضاء بين بعض العمال الفرنسيين والأسبان فقصفت فرنسا الميناء لمدة يومين وأنزلت جنودها فيه ، فاتهم المغاربة المولى عبد العزيز بالتهاون فنهض أخوه المولى عبد الحفيظ ونزع طاعته وأعلن نفسه سلطانا على المغرب فبويغ بمراكش وتصدى للدفاع عن البلاد فأخمد الثورات الداخلية وتفرغ لمواجهة الجيوش الأجنبية وفي سنة ١٩١١ م جاءت بعض القبائل إلى فاس تطلب من السلطان تنظيم حركة المقاومة ، فادعت فرنسا أنها جاءت للعدوان ، فتحركت جيوشها واحتلت مدينة فاس ثم مكناس ثم الرباط ، وفي نفس الوقت تحركت أسبانيا فاحتلت العرائش ثم القصر ، واستطاعت فرنسا عقد اتفاق جديد مع إيطاليا لتطلق لها الحرية في المغرب سنة ١٩١٢ م ، بعدها صاغت معاهدة لفرض الحماية على المغرب<sup>(٩)</sup> .

واستطاعت فرنسا انتزاع توقيع السلطان على المعاهدة ، وبعدها تنازل عن العرش لعدم قدرته على مواجهة المقاومة التي اندلعت إثر ذلك ، وتولى بعده المولى يوسف وتمكنت فرنسا من عقد اتفاقية جديدة مع أسبانيا حتى لاتصطدم مع نفوذ أسبانيا في بعض المناطق ، وانقسمت بعدها المغرب إلى ثلاثة أقسام منطقة الحماية الفرنسية ، ومنطقة الحماية الأسبانية ، ومنطقة طنجة الدولية ، وعقد حولها عدة اتفاقات بين إنجلترا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا<sup>(١٠)</sup> .

٣ ( ) انظر : المغرب العربي للعقاد ص ٢٨٧-٣٣٠ .

٣ ( ) انظر : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب ، أزمة المغرب الأقصى (كاملين) .

٣ ( ) انظر : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب ص ٤٨، ٤٦، ٢٧ .

٣ ( ) المغرب العربي ص ٢٩٧ .

واندلعت الثورات في المدن وفي نواحي القبائل ، ومن ذلك ثورة البربر في السوس بالجنوب بقيادة الهيبية ابن الشيخ ماء العينين<sup>(١)</sup> الذي تمكن من الاستيلاء على مراكش وأكادير ، وثورة قبائل غباشة بقيادة عبد الملك الجزائري حفيد الأمير عبد القادر ، وغيرها من الثورات ضد الفرنسيين وكذلك اندلعت الثورات ضد الأسبان ومنها ثورة أحمد بن محمد رسولي الذي اضطرت أسبانيا إلى عقد صلح معه<sup>(٢)</sup> .

ثم ظهر محمد عبد الكريم الخطابي الملقب ببطل الريف أو أمير الريف الذي تزعم الحركة ضد الأسبان ، وكان قد نهل من مناهل العلم بتطوان ثم في فاس بجامعة القرويين وتخرج عام ١٩٥٩م كما درس في أسبانيا ، وبعد أن تمكن الأسبان من قتل والده بالسوم إيقافا لنشاطه في الكفاح تولى محمد زعامة قبيلته وقاد حركة الكفاح فاستطاع احراز عدة انتصارات ضد الأسبان ، وكان أهمها معركة أنوال سنة ١٩٢١م حيث أعلن بعدها نفسه أميراً على منطقة الريف ، وبدأ تنظيم شئونها الإدارية والعسكرية ثم أوقع بالأسبان هزيمة منكرة لاتقل عن هزيمة أنوال أثناء انسحابهم من منطقتهم سنة ١٩٢٤م ، واستنجدت بعض القبائل بعبد الكريم ضد الفرنسيين فهب لنجدتهم واستطاع أن يهاجم بعض المراكز الفرنسية ويستولي عليها وتم إعلان هدنة مؤقتة بين عبدالكريم وفرنسا سنة ١٩٢٥م ورفض عبدالكريم شروطا عرضتها عليه الحكومة الفرنسية والأسبانية فنجحت القوات الأسبانية بمعاونة البحرية الفرنسية والقوة الجوية التي كانت تقوم بإلقاء الغاز السام علي منطقة أجدير عاصمة الجمهورية الريفية ، التي سقطت في أيديهم وبعدها عقد مؤتمر للصلح في وجده لم يقبل الأمير عبد الكريم بشروطه واندلع القتال مرة أخرى بدون تكافؤ مما أدى إلى استسلام عبد الكريم للفرنسيين الذين قاموا بنفيه ، ثم انتقل إلى مصر وطلب اللجوء السياسي وقضى بقية حياته هناك<sup>(٣)</sup> .

لكن لم يتوقف الجهاد المغربي عند هذا الحد بل تعددت طرق المغاربة في كفاحهم للمستعمر ومن ذلك إنشاءهم كتلة العمل الوطني وإصدار الصحف والنشرات وتكوين الحزب الوطني ، ثم تأليف حزب الاستقلال ولعب الملك محمد الخامس دورا هاما في صف الحركة الوطنية بعد مبايعته عقب وفاة المولى يوسف سنة ١٩٢٧م ، وزار محمد الخامس طنجة وخطب فيها خطابا أكد فيها وحدة المغرب الجغرافية وحقه في الحرية والاستقلال ، وأشاد بجامعة الدول العربية وأعلن أن بلاده جزء من الوطن العربي ، ثم سافر إلى باريس وعرض قضية بلاده على حكومة فرنسا، فأقدمت فرنسا على خلع الملك محمد الخامس وأحلت مكانه محمد عرفة فثارت نائرة المغاربة وظهرت المقاومة المسلحة بواسطة جيش التحرير المغربي فسارعت سنة ١٩٥٦م بإعادة الملك إلى عرشه ، لكنه اشترط اعتراف فرنسا بحق المغرب في الاستقلال وتشكيل

(١) انظر الأعلام ٢٦٥/١

(٢) هذه مراكش ص ١٧٢ .

(٣) انظر عبد الكريم أمير الريف<sup>٢</sup>، بطل الريف الأمير محمد بن عبد الكريم (كاملين).<sup>٣</sup>

حكومة مغربية للتفاوض مع فرنسا وتم ذلك فعلا ، وأعلن في سنة ١٩٥٦م الاعتراف باستقلال المغرب وإلغاء عقد الحماية الفرنسية وأصبح وضع أسبانيا محررا بعد التسليم الفرنسي فاستدعت الملك لمدريد وصدر من هناك تصريح مشترك بنفس الاعترافات وتمت وحدة المغرب واستقلاله ، وأعلنت القيادة الدولية التي كانت تتولى إدارة طنجة إلغاء نظامها الدولي ووضعها تحت سيادة المغرب ابتداء من أول سنة ١٩٥٧م (١) .

أما منطقة شنقيط التي أطلق عليها الاستعمار الفرنسي (موريتانيا) والتي كانت تعد جزءا من المغرب ، فحينما قررت فرنسا منح الاستقلال لمستعمراتها السابقة في غرب إفريقيا أعدت موريتانيا للحكم الذاتي ، وعندما اقترب موعد تقرير المصير استطاع ما يعرف بحزب التجمع الموريتاني الحصول على أغلبية المقاعد في أول جمعية تشريعية سنة ١٩٥٨م ، وتولى رئيس الحزب مختار ولد دادة الإدارة المحلية ، وأعلن الاستقلال الرسمي سنة ١٩٦٠م (٢) .

وكان من أعلام المفسرين الذين ظهوروا في تلك الفترة بمنطقة المغرب وموريتانيا : محمد الأمين الشنقيطي ت ١٣٩٣هـ صاحب كتاب أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن وكان ذا أثر كبير في منطقة المغرب بأسرها ، ومحمد عبد الحمي الكتاني ت ١٣٨٢هـ وغيرها .

**المطلب الرابع : الأوضاع في المنطقة من الاستقلال وحتى الآن وتأثير ذلك على الناحية العلمية :**

#### أولا : تونس

ولما تقرر منح تونس الاستقلال دعا الباي رئيس الحزب الدستوري الحبيب بورقيبة إلى تقلد رئاسة الحكومة وتم وضع دستور للبلاد لتنظيم أمورها قضائيا واقتصاديا واجتماعيا وتم إلغاء النظام الملكي وإعلان الجمهورية وانتهت الدولة الحسينية وتم هذا الانقلاب بدون إراقة قطرة دم وتسلم مقاليد الرئاسة الحبيب بورقيبة الذي شكل حكومة تتركب من أحد عشر دولة ومنها كتابة الدولة المتولية للشعائر الدينية التي قامت بتجديد المساجد وإصلاح جامع الزيتونة وإصلاح جامع عقبة القيروان وتنظيم خطط الشعائر وتوفير جرايات

(١) انظر المغرب العربي لصالح العقاد ص ٥٣٠-٥٣٢ ، السيادة والحكم في إفريقيا .

(٢) المغرب العربي ص ٥٣٢ .

أربابها وحفظ ما لهم من عوايد ، وقامت هذه الكتابات بدورها في النهوض بأمور الجيش وبالنواحي الداخلية والخارجية ، وتم جلاء آخر جندي أجنبي سنة ١٩٦٢ م . ( )

إلا أنه من المؤسف استبدال الحكومة الحكم الشرعي بالأحكام الوضعية ، وتم العبث حتى بقوانين الأحوال الشخصية ، وأصبح القضاء مدنيا لاشرعيا إلا في بعض الجوانب الهامشية ، وأما خطة الإفتاء فصارت استشارية دولية في سنة ١٩٦٢ م ودعا بورقيبة إلى الإفطار في رمضان حتى لا يتأثر الانتاج واستطاع بورقيبة أن يحتفظ بالزعامة الفردية للدولة وقابل كل الانتفاضات التي قامت ضده بالقمع الذي وصل للاستعانة بالجيش وقتل المواطنين وأعلن تعديلا في نظام الحكم يقضي بأن تكون الرئاسة له مدى الحياة . ( )

وحاليا يتولى الحكم في تونس زين العابدين بن علي الذي تقلد المنصب بعد وفاة الحبيب بورقيبة ، على النظام الجمهوري والحكم بالقوانين الوضعية ، وقد ضيق الخناق على الجماعات الإسلامية التي تطالب بتحكيم الشريعة ، وأصبح المسلم الملتزم في صراع مع السلطة حتى حول الفرعيات كإطلاق اللحية ولبس الثوب وما إلى ذلك .

### ثانيا : الجزائر

وبعد أن أعلن الاستقلال في الجزائر بدأ الصراع على الحكم والاختلاف بين زعماء الثورة فتأخرت انتخابات الحكومة الجزائرية شهرين حتى تسلم السلطة أحمد بن بيللا بتأييد معظم جيش التحرير الذي يقوده هواري بومدين وتمت المصادقة على الدستور سنة ١٩٦٣ في سبتمبر ورشح أحمد بن بيللا أول رئيس للجمهورية الديمقراطية الشعبية التي يعتنق قادتها الفكر الشيوعي وأعلن الرئيس أن مبادئه تختلف عن الماركسية في أمرين رئيسين : الاعتراف بالقيم الروحية والأخذ بالمبدأ القومي وظهر تيار قوي يستهدف ربط الاشتراكية بالإسلام وجابه بن بلل حركات تمرد استعان بالجيش في مواجهتها مثل حركة انشقاق سي العربي سنة ١٩٦٣ م وفي سنة ١٩٦٥ أراد بن بيللا استبعاد وزير خارجية بقرار فردي وأدى ذلك إلى الانقلاب الذي قام به هواري بومدين وقام طاهر الزبيري بالقبض على بن بيللا إلا أن الزبيدي حاول الانقلاب بعد ذلك علي بومدين سنة ١٩٦٧ إلا أنه استطاع قمع تلك الحركة ومنذ ذلك الوقت استقرت السلطة في الجزائر وأكمل بومدين

بناء الدولة على مبادئه سابقه بن بيللا على النهج الاشتراكي وانضمت للدول التقدمية في العالم العربي في مقابل الدول المحافظة وأصبح لها علاقات وطيدة مع فرنسا وشجعت الهجرة إليها . ( ٨ )  
ثم تولى الحكم بعد هوارى بومدين الشاذلي بن جديد على نفس النظام الذي يحكم القوانين الوضعية ،  
وظهرت على الساحة جبهة الإنقاذ الإسلامية بقيادة عباس مدني وعلي بلحاج ، التي فازت بأغلبية في  
الانتخابات ( ٩ ) فتم الضغط عليه بالاستقالة ليتولى الجيش الحكم لإقصاء الجبهة ، ثم تولى الحكم لجنة من  
الجيش ثم أتوا بمحمد بوضياف الذي قتل في إحدى المؤتمرات ، ثم قامت فتن عظيمة وكثر القتل والإرهاب  
، وتولى الحكم عدة أشخاص انتهوا حاليا بأحمد بوتفليقة الذي كان من المساعدين لبومدين .

### ثالثا : المغرب

وأعلن الملك محمد الخامس بعد الاستقلال عن تأسيس جيش وطني مغربي ، وانضم المغرب إلى هيئة الأمم  
المتحدة وعين ابنه الحسن وليا للعهد وعندما وضع الدستور الأول سنة ١٩٦٢م حصر وراثته العرش في  
الابن الأكبر .  
ولم تهدأ الحركات الانقلابية والشعبية ضد القصر فأصدر الملك الحسن الذي تولى بعد وفاة والده دستورا  
جديدا أقرب إلى الديمقراطية سنة ١٩٧٢م ، وبقي الحكم على ما هو عليه من ترك الشريعة الإسلامية  
وتحكيم القوانين الوضعية . ( ١٠ )

### رابعا : موريتانيا

استطاعت موريتانيا بعد استقلالها تقويض مشكلتها مع المغرب حول الصحراء ووقعا معا اتفاقا بحسن  
الجوار ، كما أعلنت التحاقها بجامعة الدول العربية سنة ١٩٧٣م ، وانتقل الحكم بعد ولد دادة ولد محمد  
السالك ثم الحاكم الحالي معاوية ولد سيدي أحمد الطايع ، واستمر الحكم فيها كسابقاتها على ترك الشريعة  
الإسلامية واستبدالها بالقوانين الوضعية ولا حول ولا قوة إلا بالله . ( ١١ )

( ٨ ) انظر : المغرب العربي ص ٣٢٦-٤٦٩ .  
( ٩ ) انظر : مدراك النظر في السياسة ص ٩١-١٣٧ .  
( ١٠ ) انظر : المغرب العربي ص ٥٣٢ .  
( ١١ ) انظر المرجع السابق .

أما بالنسبة للتأثير الحاصل في المنطقة على الناحية العلمية والثقافية فقد واجهت بلاد المنطقة مشكلات معقدة في جانب التعليم مع بداية عهد الاستقلال وتوجب عليها القيام بعمليتين في آن واحد : الأولى : نحو الأمية ، الثانية : تعريب التعليم ولغة الثقافة والإدارة التي أصبحت الفرنسية بعد الاحتلال وفي العهد الاستعماري .

ولم تكن توجد بالمغرب العربي كله سوى جامعة الجزائر الفرنسية الهوية فعملت الجزائر على تطويرها وقبل ذلك عمدت إلى إنشاء جامعتين جديدتين إحداها في وهران ، والثانية في قسنطينة ، ثم أضافت ثلاث جامعات أخرى إقليمية ، وانتشرت الجامعات والمعاهد بعد ذلك في المنطقة ومن ذلك جامعة الزيتونة والجامعة التونسية بتونس ، وجامعة محمد الخامس ، وجامعة فاس ، وجامعة القرويين بالمغرب ، وفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بنواكشوط ، وغير ذلك .

ولاشك أن الفترة الحالية لم تنضج بعد دراستها التاريخية ، وأخبارها مبثوثة في وسائل الإعلام بين جريدة يومية أو حولية ومجلة إسلامية أو اجتماعية وشريط لمحاضرة أو لندوة ولقاء عبر تلفاز أو مذياع وغير ذلك ولكن يمكن إجمال الكلام فيها بما يتوارد على الأسماع ، ويلاحظ أن الوضع العام في المنطقة يبعد حقيقة عن الاهتمام بالنواحي الشرعية وغلب على البلاد المعاصي والفتن والتفرنج وتقليد الغرب في عامة مناحي الحياة إلا أن التطور الذي يشهده العالم حاليا في مجالات التقنية الحديثة والتعليم بغض النظر عن ماهيته ساهم في إثراء الحياة الثقافية والعلمية على وجه العموم ، فانتشار الجامعات وتطور أمر الدراسات العليا فيها والتفوق الهائل في مجال الاتصالات والطباعة والإعلام عامة أدى إلى خروج أعمال كثيرة تتعلق بالتفسير جملة كبيرة منها رسائل علمية في مرحلة التخرج لطلبة الكليات الشرعية ورسائل للحصول على درجة الماجستير والدكتوراة وبحوث مختصرة للترقي لدرجة الأستاذية بالنسبة لمدرسي الجامعات المتخصصة في مجال التفسير ، كما ظهرت مقالات في الصحف والمجلات الإسلامية تتعلق بمباحث تفسيرية متعددة ، هذا خلا المؤتمرات الإسلامية والندوات والمحاضرات والبرامج الإذاعية والمعروضة بالتلفاز والتي اشتهر منها المجالس الحسينية التي يعقدها الملك الحسن مع علماء الشريعة وتتطرق لشتى المباحث العلمية التي تشمل التفسيرية وغيرها .

ولم تعدم الفترة الحالية من كتب شاملة في تفسير القرآن سوف نتعرض لها بالحديث إن شاء الله عن التفاسير ، وكتاب أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، وكتاب أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للشيخ أبي بكر جابر الجزائري وكتاب التيسير في أحاديث التفسير للشيخ المكي الناصري الذي أذيع بإذاعة المغرب في حلقات وطبع الآن كاملا ، ويذاع حاليا في إذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية .